علماء ومفكرون معاصرون

لمحات من حياتهم، وتعريف بمؤلفاتهم

٢



١٣٢٧ - ١٤٢٠ هـ

١٩٠٩ - ١٩٩٩ م

أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء

بقلم حفيده

مجاهد مأمون ديرانية

دار القلم

دمشق



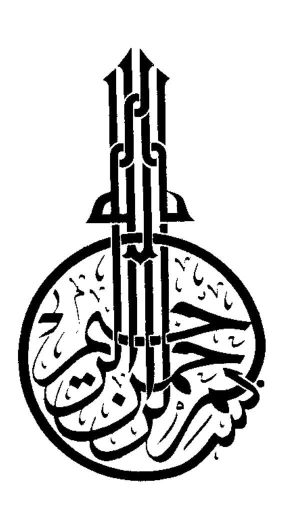
١٣٢٧ ـ ١٤٢٠ هـ

١٩٠٩ ـ ١٩٩٩ م

أديب الفقهاء، وفقيه الأدباء

بقلم حفيده

مجاهد مأمون ديرانية



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

تُطلب جميع كتبنا من :

دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي هذا الكتاب

لم أعلم ـ حين طلب إليّ الأخ الفاضل، الناشر الأديب، محمد علي دولة أن أكتب هذا الكتاب ـ أنه سيكون مصدرَ متعةٍ لي وفرصةً للعودة إلى كتب جدي التي قرأتها على مرِّ السنين مرات ومرات. لقد كنت في الثالثة عشرة حين أهداني جدي نسخة كاملة من مجموعة مؤلفاته، وقد اعتبرتها في ذلك الوقت كنزاً ثميناً لا يحصل مثلي ـ عادةً ـ على مثله، فأقبلت عليها إقبال النّهم الولهان. وما زلت أعود إلى بعضٍ منها بين وقت وآخر فأقرؤه، فكأنما أَقرؤه في كل مرة أولَ مرة، فأستمتع به وأحس بأنني استفدت جديداً من علم أو لغة أو أسلوب. فلما جئت اليوم أكتب عن هذه الكتب معرِّفاً قرّاء هذا الكتاب بها، أحسست أني قد كشفت فيها أشياء جديدة، وأعادتني قراءتي لها إلى مواضي أيامي التي تلقيتها فيها أول مرة، وأحسست بلذة ذلك التلقي الأول تسري في روحي وتملك عليّ قلبي. . . فيا أخي أبا سليم، لك الشكر.

أما جدي، فأي شيء أكتب عنه معرِّفاً به؟ أوَمثله يحتاج إلى تعريف؟ ولكن الأخ الناشر أراد تعريفاً موجزاً ينسجم مع هذا الكتاب فأجبته إلى ما أراد وأنا في حيرة من أمري: أي شيء أكتب عن الشيخ وأي شيء أدع. لقد أمضى حياةً حافلةً عاصر فيها قرناً قطعت فيه البشرية في سلم التطور المدني والتقدم العلمي مثل ما قطعته في تاريخها السابق كله من يوم أن استعمر الله الإنسان في الأرض، وهو لم يكن شاهداً ومتفرجاً لا غير، بل كان له في صناعة الأحداث دور وفي توجيه الناس نصيب؛ علّم في المدارس الابتدائية والثانوية وفي المعاهد والجامعات، وعلّم البنين والبنات،

وتـدرج في مراتب القضاء كلها ومـارس أنواعـه جميعها، وشـارك في الحركات الوطنية ومشى في قضايا الأمة المسلمة وطاف أكثر البلاد العربية والإسلامية، واستمر يكتب في الصحف ويلقي الدروس والمحاضرات ويحدّث في الإذاعات لنحو سبعين عاماً، والذي تركه من الصفحـات المنشورة عشرات الآلاف، فهل يتسع للحديث عن هذا كله جزء صغير من هذا الكتاب؟

إنما جهدي هذا إعذار وهذا ـ بين يديه ـ اعتذار، فما وُفقت فيـه فبفضلٍ من الله، وما قصرت فما زدت على ما كان جدي ـ رحمه الله ـ يكرر قوله: «ما لا يدرك كله، لا يُترك قُلُّه».

* * *

الفَصْل الأوّل

لمحات من حياته

١ ـ أصله وأسرته

٢ ـ نشأته ودراسته

٣ ـ في الصحافة

٤ ـ في التعليم

٥ ـ في القضاء

٦ ـ في المملكة

٧ ـ وبعد

* * *



١ ـ أصله وأسرته

حيث أن لقب جدي هو «الطنطاوي»، فإن الذي يتبادر إلى الذهن أن أصله من طنطا في مصر، والأمر ـ بالفعل ـ كذلك. فقد نزح جده منها إلى دمشق سنة ١٢٥٥هـ، أي منذ قرن وثلاثة أرباع القرن، برفقة عمه. وكان عمه هذا عالماً أزهرياً حمل علمه معه إلى ديار الشام حيث جدد فيها العناية بالعلوم العقلية ولا سيما الفلك والرياضيات. تحدث عنه جدي في ذكرياته فقال: «هذا الشاب الذي وصل دمشق سنة ١٢٥٥ ولد في طنطا (التي كان اسمها طندتا) وأنا لم أدركه. وكيف؟ وقد مات سنة ١٣٠٦، أي قبل أن أولد بإحدى وعشرين سنة؟! ما أدركته ولكن سمعت خبره من شيوخ أسرتي، وممن أدركت من تلاميذه، ومن ترجمته في الكتاب القيّم «روض البشر» للشيخ عبد الرزاق البيطار وفي كتاب «الحدائق» للشيخ عبد المجيد الخاني ـ وهما تلميذاه ـ وقد جاء في ترجمته: «هو محمد ابن مصطفى، الطنطاوي مولداً، الدمشقي موطناً، الشافعي مذهباً. وكان فقيهاً عالماً بالعربية والفلسفة والعلوم، ومن آثاره البسيط (وهو آلة فلكية) الموضوع في منارة العروس بالجامع الأموي». ومن نظر في تراجم علماء الشام في القرن الماضي وجد الكثير منهم قد قرأ عليه وقعد بين يديه»[١].

هكذا كان ابتداء أمر أسرة الطنطاوي في الشام. أما جد جدي (الذي جاء من مصر برفقة عمه الشيخ محمد) فهو أحمد بن علي بن مصطفى، وقد كان إمام طابور متقاعداً في الجيش العثماني. وقد وصفه جدي لنا[٢]

---

(١) الذكريات: ١/ ١٣٣.

(٢) الحديث عنه في: الذكريات: ١/ ١٤٣.

فعلمنا من وصفه أنه كان نظامياً حريصاً على الترتيب، كل شيء في حياته بحساب؛ المنام والقيام والطعام. فكان طعامه ـ مثلاً ـ في الساعة الثامنة الغروبية، «لا يتقدم عنها ولا يتأخر إلا إذا خرجت الأرض عن مدارها أو أسرعت في مسارها أو غابت الشمس قبل حين غيابها... وطالما كان يولم الولائم يدعو إليها كبار قادة الجيش أو وجهاء البلد، فإذا بلغت الساعة الثامنة باشر الأكل مع من حضر، وإن لم يحضر أحدٌ شرع يأكل وحده!»[١]. قال علي الطنطاوي: «وقد سكن جدي أولاً مع عمه في داره الكبيرة وتزوج ابنته، لذلك كان أبي يعرِّف نفسه بأنه «سبط الطنطاوي»؛ أي ابن بنته»[٢].

هذا هو جد جدي. أما أبوه، الشيخ مصطفى الطنطاوي، فقد كان من العلماء المعدودين في الشام، وانتهت إليه أمانة الفتوى في دمشق. وصفه جدي بأنه كان «من صدور الفقهاء ومن الطبقة الأولى من المعلمين والمربين»[٣]. وتحدث عنه فقال: «كنت منذ وعيت أجد ـ إذا أصبحت ـ مشايخ بعمائم ولحى يقرؤون على أبي، وكنت أدخل بالماء أو بالشاي، فألتقط كلمة لا أفهم معناها ولكن تبقى في نفسي ذكراها، ثم صار أبي يأمرني أن أناوله الجزء الأول من حاشية ابن عابدين، أو الثاني من الفتاوى الهندية، أو جزءاً من القاموس، أو تنقيح الحامدية، فعرفت بعض أسماء الكتب»[٤]. وكان الشيخ مصطفى مديراً للمدرسة التجارية التي دَرَس فيها جدي ووصفها قائلاً: إنها «كانت مدرسة جامعة، فيها قسم للحضانة، وقسم للابتدائي، وقسم للإعدادي والثانوي، مجموع سنوات الدراسة فيها اثنتا عشرة سنة». وبعدما ترك مديرية المدرسة ولي منصب رئيس

---

(١) الذكريات: ١/ ١٤٣.
(٢) الذكريات: ١/ ١٤٤.
(٣) الذكريات: ٢/ ١١١؛ وتعريف عام، ص٥.
(٤) الذكريات: ١/ ٧١.

ديوان محكمة النقض عام ١٩١٨ إلى أن توفي في عام ١٩٢٥ (وكان عمر جدي ـ حينذاك ـ ست عشرة سنة وثلاثة أشهر)، وهو «لم يكن معدوداً رسمياً في قضاة المحكمة، بل كان في رأس سلم المساعدين القضائيين ودون مرتبة المستشارين، ولكنهم كانوا يدعونه إلى كل جلسة تُدرس فيها دعوى مدنية لها صلة بالفقه، فكان يشارك في المناقشات، ويؤخَذ رأيه في الآراء، وكان الحكم يصدر حيث يكون رأيه. سمعت ذلك من كثير من أعضاء المحكمة فيما بعد، كما سمعته من رئيسها يومئذ وأنا صغير، وكنت تلميذاً في آخر المرحلة الابتدائية»[١].

وأسرة أمه أيضاً من الأسر العلمية في الشام، كثير من أفرادها من العلماء المعدودين ولهم تراجم في كتب الرجال (وقد تحدث جدي عن هذا القسم من أسرته بشيء من التفصيل في الجزء الأول من ذكرياته المنشورة، ص٢٠١ وما بعدها). وخاله، أخو أمه، هو محب الدين الخطيب الذي استوطن مصر وأنشأ فيها صحيفتي «الفتح» و«الزهراء» وكان له أثر في الدعوة فيها في مطلع هذا القرن.

٢ ـ نشأته ودراسته

كان علي الطنطاوي من أوائل الذين جمعوا في الدراسة بين طريقي التلقي على المشايخ والدراسة في المدارس النظامية؛ فقد تعلم في هذه المدارس إلى أن تخرج في الجامعة، وكان يقرأ معها على المشايخ علوم العربية والعلوم الدينية على الأسلوب القديم. وقد عدّ من مشايخه الذين قرأ عليهم ـ في حاشيةٍ طويلةٍ في أول كتابه «تعريف عام بدين الإسلام» ـ طائفةً منهم يجاوزون الأربعين.

تلقى دراسته الابتدائية الأولى على العهد العثماني، فكان طالباً في

---

(١) الذكريات: ٨/ ٣٥.

المدرسة التجارية التي كان أبوه مديراً لها إلى سنة ١٩١٨، ثم في المدرسة السلطانية الثانية، وبعدها في المدرسة الجقمقية، ثم في مدرسة حكومية أخرى إلى سنة ١٩٢٣، حين دخل «مكتب عنبر» الذي كان الثانوية الكاملة الوحيدة في دمشق حينذاك، ومنه نال البكالوريا سنة ١٩٢٨. لقد عاش جدي في هذه المدرسة ستاً من أغنى سني حياته لم ينسَ أثرها ولم تغِبْ عنه ذكراها إلى آخر أيامه، وها هو ذا يقول عنها: «لقد عشت في هذا المكتب ست سنين كانت أحفل سني حياتي بالعواطف وأغناها بالذكريات، وكانت لنفسي كأيام البناء في تاريخ الدار. لو عاشت الدار بعدها ألف سنة لكانت كلها تبعاً لهذه الأيام التي يُرسم فيها المخطط وتُحدد الغرف ويُرسى الأساس»[1].

بعد ذلك ذهب إلى مصر ودخل دار العلوم العليا، وكان أولَ طالب من الشام يؤم مصر للدراسة العالية، ولكنه لم يتم السنة الأولى وعاد إلى دمشق في السنة التالية (١٩٢٩) فدرس الحقوق في جامعتها حتى نال الليسانس سنة ١٩٣٣. وقد رأى ـ لمّا كان في مصر في زيارته تلك لها ـ لجاناً للطلبة لها مشاركة في العمل الشعبي والنضالي، فلما عاد إلى الشام دعا إلى تأليف لجان على تلك الصورة، فأُلفت لجنةٌ للطلبة سُميت «اللجنة العليا لطلاب سوريا» وانتُخب رئيساً لها وقادها نحواً من ثلاث سنين. وكانت لجنة الطلبة هذه بمثابة اللجنة التنفيذية للكتلة الوطنية التي كانت تقود النضال ضد الاستعمار الفرنسي للشام، وهي (أي اللجنة العليا للطلبة) التي كانت تنظم المظاهرات والإضرابات، وهي التي تولت إبطال الانتخابات المزورة سنة ١٩٣١.

وقد علمتم أن أباه توفي وعمره ست عشرة سنة، فكان عليه أن ينهض بأعباء أسرةٍ فيها أمٌّ وخمسة من الإخوة والأخوات هو أكبرهم.

---

(١) في الذكريات حديث طويل عن مكتب عنبر، انظر: ١/ ١٠٣ـ١٣٠، ١٤٩ـ١٧٤.

ومن أجل ذلك فكر في ترك الدراسة واتجه إلى التجارة، ولكن الله صرفه عن هذا الطريق وعاد إلى الدراسة ليكمل طريقه فيها. «لقد فقدت أبي وأنا في مطلع الشباب، واضطررت إلى أن أكتسب قبل سن الاكتساب، وتعلمت ودرست على ضيق الحال وقلّة الأسباب، وأكرمني الله فعلمني وكفاني، فما أحوجني أن أمدّ يدي يوماً إلى أحد ممّن خلق الله»[1].

ثم ماتت أمه وهو في الرابعة والعشرين، فكانت تلك واحدة من أكبر الصدمات التي تلقاها في حياته. ولقد شهدتُه مراراً يذكرها ويذكر موتها ـ وقد مضى على موتها أكثر من ستين سنة ـ وأشهد ما كان ذلك إلاّ وفاضت عيناه. وما أحسبه كتب الفصل الذي وصف فيه موتها في ذكرياته[2] إلا عاش ذلك اليوم بمرارته وآلامه من وراء حجابِ نصفِ قرنٍ من الزمان:

«وجاء اليوم الأسود، وكان يوم أربعاء أذكره تماماً، وكان في الثاني والعشرين من صفر سنة ١٣٥٠. مرّ عليه ثلاث وخمسون سنة، ولا تزال ذكراه ماثلة أمام عيني، كأنه قد كان أمس... وذهبنا، وكان أستاذ الجراحة الدكتور نظمي القباني حاضراً، فأدخلها إلى غرفة العمليات رأساً ووقفت أنتظر كما يقف المتهم أمام محكمة الجنايات ليسمع الحكم له بالبراءة أو عليه بالموت. وطال وقوفي، وثقلت الدقائق عليّ حتى لأحسّ طقطقة الساعة الكبيرة على الجدار فوق رأسي كأنها مطارق تنزل عليه، إلى أن فُتح الباب وخرج الدكتور صبري يقول: لا بد من بتر الساق، فاكتب هنا أنك موافق. ولم يدع لي وقتاً للتفكير لأن الأمر ـ كما قال ـ لا يحتمل التأخير، فكتبت، وأخذ الورقة ودخل، ولبثت مثل المشدوه أفكر كيف تدخل بساقين وتخرج بساق واحدة. وكبر عليّ الأمر، ونسيت

---

(١) الذكريات: ٨/ ٢٦.
(٢) الذكريات: ٢/ ١٢٤.

أن بعض الشر أهون من بعض وأن الإنسان يتمنى المصيبة إذا واجه ما هو أكبر منها. لقد تمنيت بتر الساق حين فُتح الباب وظهر الدكتور صبري، ينطق وجهه قبل أن ينطق لسانه، يخبر أن أمي لن تخرج بساق ولا بساقين، لن تخرج إلا محمولة على الأعناق. . . لقد ماتت أمي!». هل أقرأ عليكم بقية المشهد؟ لا، بل اقرؤوه أنتم في الجزء الثاني من الذكريات المنشورة، في الصفحة ١٣١، ولكن لا تفعلوا بغير منديل تمسحون به دموعكم التي لن تملكوا لها حبساً ولا رداً.

٣ ـ في الصحافة

نشر علي الطنطاوي أول مقالة له في جريدة عامة في عام ١٩٢٦، وكان في السابعة عشرة من عمره. ولهذه المقالة قصة طريفة أترككم معها في السطور التالية: «كتبت مقالاً وقرأته على رفيقي أنور العطار، فأشار عليّ أن أنشره. فاستكبرت ذلك، فما فتئ يزينه لي حتى لنت له، وغدوت على إدارة «المقتبس» فسلمت على الأستاذ أحمد كرد علي ـ رحمه الله ورحم جريدته ـ ودفعت إليه المقال. فنظر فيه فرأى كلاماً مكتهلاً، ونظر في وجهي فرأى فتى فطيراً، فعجب أن يكون هذا من هذا، وكأنه لم يصدقه فاحتال عليّ حتى امتحنني بشيء أكتبه له زعم أن المطبعة تحتاج إليه فليس يصحُّ تأخيره، فأنشأته له إنشاء من يسابق قلمه فكره، فازداد عجبه مني ووعدني بنشر المقال غداة الغد. فخرجت من حضرته وأنا أتلمس جانبيّ أنظر هل نبت لي أجنحة أطير بها لفرط ما استخفني السرور، ولو أني بويعت بإمارة المؤمنين ما فرحت أكثر من فرحي بهذا الوعد. وسرت بين الناس وكأني أمشي فوق رؤوسهم تعالياً وزهواً، وما أحسبني نمت تلك الليلة ساعة، بل لبثت أتقلب على الفراش أتصور أي جنة من جنات عدن سوف أدخل في غداة الغد وأي كنز سأجد. حتى إذا انبثق الصبح وأضحى النهار أخذت الجريدة، فإذا فيها المقال وبين يديه كلمة ثناء لو

قيلت للجاحظ لرآها كبيرة عليه . . . »[1] .

بعد هذه المقالة لم ينقطع علي الطنطاوي عن الصحافة أبداً، فعمل بها في كل فترات حياته ونشر في كثير من الصحف؛ شارك في تحرير مجلتي خاله محب الدين الخطيب، «الفتح» و«الزهراء»، حين زار مصر سنة ١٩٢٦ ، ولما عاد إلى الشام ـ في السنة التالية ـ عمل في جريدة «فتى العرب» مع الأديب الكبير معروف الأرناؤوط، ثم في «ألِف باء» مع شيخ الصحافة السورية يوسف العيسى، ثم كان مدير تحرير جريدة «الأيام» التي أصدرتها الكتلة الوطنية سنة ١٩٣١ ورأس تحريرها الأستاذ الكبير عارف النكدي، وله فيها كتابات وطنية كثيرة. وخلال ذلك كان يكتب في «الناقد» و«الشعب» وسواهما من الصحف. وفي سنة ١٩٣٣ أنشأ الزيات المجلة الكبرى، «الرسالة» فكان جدي واحداً من كتّابها واستمر فيها عشرين سنة إلى أن احتجبت سنة ١٩٥٣ . وكتب ـ بالإضافة إلى كل ذلك ـ سنوات في مجلة «المسلمون»، وفي «الأيام» و«النصر». وحين جاء إلى المملكة نشر في مجلة «الحج» في مكة، وفي جريدة «المدينة»، وأخيراً نشر ذكرياته في «الشرق الأوسط» على مدى نحو من خمس سنين. وله مقالات متناثرة في عشرات من الصحف والمجلات التي كان يعجز ـ هو نفسه ـ عن حصرها وتذكر أسمائها.

وقد بقيت الصحافة أبداً العمل الأثير لديه. قال عنها: «أما من حيث قرب هذه المهنة من نفسي فهي أحب إليّ من كل مهنة مارستها. ولو خُيِّرت الآن لاخترتها دون سواها، بشرط أن أكون أنا وحدي المشرف على المجلة، وأن أكون حراً لا رأي فوق رأيي ولا مُكرِه لي على نشر ما لا أريده أو طي ما أريده. . . »[2]. وفي الذكريات المنشورة (الجزء

---

(١) من حديث النفس، ص١٤٩ .
(٢) الذكريات: ٢/ ٥ .

الثاني، الحلقات ٣٥ـ ٣٧) تفصيل ممتع وأخبار كثيرة طريفة مفيدة عن اشتغاله بالصحافة وعن الذين اشتغل معهم فيها، فمَن شاء فليرجع إليها هناك.

٤ ـ في التعليم

إذا كانت الصحافة هي المهنة التي أحبها علي الطنطاوي، فإن التعليم هو العمل الذي ملأ حياته كلها. لقد كان يقول عن نفسه إنه أقدم المعلمين في الدنيا أو من أقدمهم. وكيف لا يكون كذلك وهو قد بدأ بالتعليم ولمّا يَزَلْ طالباً في المرحلة الثانوية؟ لقد بدأ بالتدريس في المدارس الأهلية بالشام؛ في الأمينية والجوهرية والكاملية، وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمره (في عام ١٣٤٥ هجرية)، وقد طُبعت محاضراته التي ألقاها على طلبة الكلية العلمية الوطنية في دروس الأدب العربي عن «بشار ابن برد» في كتاب عام ١٩٣٠ (أي حين كان في الحادية والعشرين من العمر).

بعد ذلك صار معلماً ابتدائياً في مدارس الحكومة سنة ١٩٣١ حين أغلقت السلطات جريدة «الأيام» التي كان يعمل مديراً لتحريرها، وبقي في التعليم الابتدائي إلى سنة ١٩٣٥. وكانت حياته في تلك الفترة سلسلة من المشكلات بسبب مواقفه الوطنية وجرأته في مقاومة الفرنسيين وأعوانهم في الحكومة، فما زال يُنقل من مدينة إلى مدينة، ومن قرية إلى قرية، حتى طوّف بأرجاء سوريا جميعاً: من أطراف جبل الشيخ جنوباً إلى دير الزور في أقصى الشمال. ولكنّ شيئاً من ذلك لم يصرفه عن التعليم أو يقعد به عن المضي فيه؛ اقرؤوا كيف وصف في ذكرياته[1] تنقّله بين المدارس في القرى، في الجبال وفي الحرّات، في أيام القرّ وفي أيام الحرّ، يخوض في الثلوج وينام مع العقارب... صور لو قرأها فتيان اليوم لعجبوا كيف يطيقها إنسان، ولكننا نجده ماضياً بعزيمة وهمّة لا يَني

---

(١) في آخر الجزء الثاني وأول الثالث.

ولا يكِلّ. وهاكم واحدةً من هذه المشاهد العجيبة كما يرويها لنا حين نُقل معلماً إلى قرية رنكوس: «لما نُقلت هذه النقلة كنت في قلب الشتاء، وكنت أستطيع أن أطلب إجازة ولكني لم أقبل الهزيمة. وكانت همة الشباب تملأ جوانحي، فحزمت حقيبتي وركبت إلى صيدنايا، فلما بلغتها وقفت السيارة الكبيرة فيها ونزل منها ركابها. قلت: ولكني أريد الوصول إلى رنكوس. قالوا: مستحيل. قلت: ولِمَ؟ قالوا: الطريق مقطوع قد سدّته الثلوج. قلت لصاحب السيارة: أدفع لك ما تريد فأوصلني. قال: ما عندنا ركاب، فهل تدفع أجر المقاعد كلها؟ قلت: نعم. قالوا: وإن لم نستطع الاستمرار في السير؟ قلت: إن لم تستطيعوا فعودوا والأجرة لكم. وسرنا وسط الثلوج في طريق جبلي خطير، فلما بلغنا نصفه أو أكثر قليلاً لم يعد بالإمكان أن تتقدم السيارة ذراعاً واحداً، فقلت: عودوا وأنا أمشي. قالوا: كيف تمشي؟ الطريق خطر ولا يخلو من الوحوش، والثلوج كما ترى؟ فأصررت ومشيت، مشيت نحو ساعتين ونصف الساعة، الله وحده يعلم ما قاسيت فيهما، وكان البرد يقص العظم، ووصلت، فسألت: أين المختار؟ فنظروا إليّ مدهوشين كأنهم يرون فيّ جنياً طلع عليهم، وقالوا: من أنت، وكيف جئت؟ قلت: أنا المعلم، وقد جئت ماشياً من نصف طريق صيدنايا. وكانوا رجالاً صلاب العود يقحمون الأهوال، فعجبوا من شاب شامي يبدو في أنظارهم رقيق العود قليل الصمود يفعل ما لا يقدمون على فعله...»[1].

* * *

لقد بدأ جدي التعليم مدرّساً في المدارس الابتدائية في القرى، وقد انطلق إلى هذا العمل مشحوناً بحماسة ندر أن نجد لها مثيلاً لدى معلّم صبيان. ولكن طموحه كان أكبر من تعليم صبيان؛ كان ـ أبداً ـ يريد أن

---

(١) الذكريات: ٣/ ١٢.

يصبّ ما في رأسه من علمٍ أو في جعبته من إبداعٍ حيث عمل ومع أي أناس اشتغل. هاهو ذا يقول عن عمله مع تلاميذ المدرسة الابتدائية بقرية سلَمية التي علّم فيها سنة ١٩٣٢: «وكنت ـ من حماستي، ومما وجدت من ذكاء التلاميذ وحسن استجابتهم ورغبتهم في الاستفادة والتحصيل ـ أريد أن أجعل منهم كتّاباً وخطباء، وجعلت من دروس التاريخ محاضرات وطنية لا مجرد معرفة بأحداث الماضي...»[١].

ولمّا نُقل إلى قرية سقبا (من قرى الغوطة، قرب دمشق) في السنة التالية صار مسؤولاً عن مدرسة ابتدائية فيها أكثر من مئةٍ من التلاميذ، قال: «فأحببت أن أكون لهم كما كان أفاضل أساتذتي لي ولرفاقي؛ لا أجعل عملي كله أن آخذ ما في كتبهم المقررة فأحشو به أدمغتهم وأسجله في ذاكرتهم، حتى يؤدّوه يوم الامتحان كما تسلموه ساعة الدرس ثم يمحى منها فلا يكاد يبقى منه أثر فيها. هذا الذي تريده مني وزارة المعارف وتكافئني عليه وتقنع به مني، ولكن الله يريد أن أراقبه فيهم وأن أدلهم عليه وأرشدهم إلى ما يرضيه منهم وأجعل منهم أعضاء في جسم الأمة سليمة من العلل قائمة بالعمل، لا أعضاء معتلة ولا مشلولة ولا خاملة. حاولت أن أعودهم على أداء العبادات وعلى إقامة الصلاة، وعلى الصدق في القول والجرأة في الحق، أغرس في قلوبهم الخوف من الله وحده وأنزع منها الخوف من عبيده...»[٢]. «لقد نصحت لهم ولم أدّخر وسعاً في تقويمهم وتربيتهم. لم أكن معلّماً كالمعلمين، بل كنت مرشداً وناصحاً؛ نبهت الإيمان في قلوبهم الصغيرة، وما قلت إني غرسته لأن الإيمان مغروس في أعماق كل قلب، وعلمتهم الصدق حتى إن أحدهم يعترف بذنب ارتكبه لم يره عند ارتكابه أحد. وكانت وراء المدرسة قطعة أرض كبيرة تابعة لها مهملة

---

(١) الذكريات: ٢/ ٢٢١.

(٢) الذكريات: ٢/ ٢٦٧.

فكلفت التلاميذ انتخاب نفر منهم ليفلحوها ويزرعوها وعلمتهم كيف يكون الانتخاب فانتخبوا بإشرافي. بدأت منهجاً علمياً في التربية وفي التعليم، ولكنهم لم يدعوني أتمه... فانهدّ البناء كله لمّا تركته»[1].

بعد ذلك انتقل إلى العراق ـ عام ١٩٣٦ ـ مدرّساً في الثانوية المركزية في بغداد، ثم في ثانويتها الغربية ودار العلوم الشرعية في الأعظمية (التي صارت كلية الشريعة)، ولكن روحه الوثّابة (التي لم يتركها وراءه حين قدم العراق) وجرأته في الحق (ذلك الطبع الذي لم يفارقه قط) فعلا به في العراق ما فعلاه به في الشام، فما لبث أن نُقل مرة بعد مرة، فعلّم في كركوك في أقصى الشمال وفي البصرة في أقصى الجنوب. وقد تركتْ تلك الفترة في نفسه ذكريات لم ينسَها، وأحب بغداد حتى ألّف فيها كتاباً مما جاء في مقدمة طبعته الثانية التي كتبها عام ١٩٩٠: «كان إخواننا في العراق يقولون لنا: غداً ستنسوننا وتنسون بغداد، وهاأنذا ـ بعد أكثر من خمسين سنة ـ أتعلل بذكرى العراق، وأثني على العراق؛ ما نسيته، ولا نسيه من إخواننا وأصحابنا الذين كانوا معنا أحد»[2]. وكانت تجربته بالتعليم الثانوي هناك مختلفة عن تجربته بالتعليم الابتدائي في الشام أيّما اختلاف، فقد انتقل من تلقين تلاميذ صغار محدودي الإدراك إلى تعليم طلاب كبار يتلهفون للتلقي والتعلّم، فتفجرت قريحته ونثر ذخائر علمه بدون حساب: «أرأيتم الذي يملأ مستودعاته بالبضائع النفيسة والتحف القيمة فلا يجد لها سوقاً إلا سوق القرية، ثم تنفتح له الأسواق الكبرى ويُقبل عليه الشّارون ويزدحم عليه الناس؟ كذلك كنت لما ذهبت إلى العراق؛ كل ما حصلته من المطالعات، وما كدّسته في ذهني من المعلومات، وما اختزنته من أفكار ومشاعر، كان مسدوداً عليه الباب،

---

(١) الذكريات: ٣/ ١٠.

(٢) بغداد: مشاهدات وذكريات، ص١٥.

لأنه لم يكن أمامي في الشام إلا تلاميذ الابتدائية الذي لا يصلح هذا لهم ولا يصلحون ليُلقى عليهم. فلما جئت بغداد ووجدت طلاباً مدركين يحبون أن يتعلموا ويستطيعون أن يعوا ويفهموا انطلقت نفسي وأخرجت ما كان فيها، فجئت بأشياء لا يجوز لي أنا أن أتحدث عنها (لأن المرء لا يمدح نفسه) فاسألوا عنها مَن بقي من تلاميذي في تلك الأيام»[1].

بقي علي الطنطاوي يدرّس في العراق حتى عام ١٩٣٩، لم ينقطع عنه غير سنة واحدة أمضاها في بيروت مدرّساً في الكلية الشرعية فيها عام ١٩٣٧.

ثم رجع إلى دمشق فعُيِّن أستاذاً معاوناً في مكتب عنبر (الذي صار يُدعى مدرسة التجهيز، وهي الثانوية الرسمية حينئذ بالشام)، ولكنه لم يكفَّ عن «شغبه» ومواقفه التي تسبب له المتاعب، وكان واحدٌ من هذه المواقف في احتفالٍ أُقيم بذكرى المولد، فما لبث أن جاء الأمر بنقله إلى دير الزور! وهكذا صار معلماً في الدير سنة ١٩٤٠، وكان يمكن أن تمضي الأمور على ذلك لولا أن الشيخ مضى في سنّته ومنهجه في الجرأة والجهر بالحق: «وجاءت عطلة نصف السنة، فقلت أقضيها في الشام (أي في دمشق). فأعددت عدة السفر ووضعنا أمتعتنا في السيارة وهممنا بالمسير، ثم رأينا بأنه لم يبقَ لموعد الصلاة إلا قليل - وكان اليوم يوم جمعة - فاقترحنا أن تقف السيارة بباب المسجد فنصلي ثم نمتطيها ونتوكل على الله. فلما دخلت المسجد جاءني الشيخ حسين السراج - رحمه الله - فقال: إن القوم يطلبون أن تلقي فيهم خطبة قبل أن تسافر. وكانت باريس قد سقطت في أيدي الألمان والاضطرابات قد عادت إلى الشام، فقلت له: أنت تعلم ياشيخ حسين أنني كالقنبلة التي لا يمسكها أن تنطلق إلا مسمار

---

(١) الذكريات: ٣/ ٢٩٣، وفي آخر هذا الجزء وأول الذي يليه تفصيل عن الدروس التي كان يلقيها على الطلاب هناك.

صغير، وأخاف أن تطغى بي الحماسة فأقول ما لا يناسب المقام، فإلى أي مدى يسمح لي الموقف بالكلام؟ فضحك وقال: قل ما تشاء؛ فالمجال أمامك فسيح. فألقيت خطبة من تلك الخطب النارية التي كان لها الأثر الكبير في نفوس الناس، لا أذكر منها إلا جملة واحدة قلت فيها: «لا تخافوا الفرنسيين فإن أفئدتهم هواء، وبطولتهم ادعاء. إن نارهم لا تحرق ورصاصهم لا يقتل، ولو كان فيهم خير ما وطئت عاصمتَهم نعالُ الألمان». وكنت أحسب أن الناس في الدير مثل إخوانهم في دمشق يخرجون بالمظاهرات يصيحون فيها ويهتفون، ولم أكن أعلم أنهم مثل أهل بغداد؛ مظاهراتهم إعصار فيه نار، وزلازل تدمر، وبراكين تنفجر. خرج الناس من المسجد يريدون أن يصلوا إلى الفرنسيين فيحطموهم، وجاء الشرطة والجند ليمسكوا بي لأن المستشار (الكولونيل العسكري) أمر بالقبض عليّ، ولكن هذه الأمواج من الناس الثائرين حالوا بيني وبينهم فقنعوا من الغنيمة بالإياب...

وبعد أيام من وصولي دمشق استدعاني وزير المعارف، ودخلت عليه فاستقبلني مرحّباً وآنسني بالكلام، ثم قال لي: كأن هواء دير الزور لم يوافقك، فهل تحب أن تستريح أياماً؟ فقلت في نفسي: أتجاهل لأعرف ما الذي يريده فقلت: لا، إن هواء دير الزور وافقني جداً وصحتي بحمد الله صحة حسنة. قال: أرى أن تستريح أياماً بعد هذا السفر الطويل. قلت: لا ياسيدي؛ لا أحتاج إلى راحة وسأرجع في نهاية العطلة النصفية. فقال وقد نزع عن وجهه القناع: بلا كلام فارغ... ما بدهم إياك (أي أن المستشار الفرنسي[1] يرفض عودتي إلى الدير، فكان ذلك خيراً أراده الله لي). قلت: كيف أبقى هنا بلا عمل؟ قال: نمنحك إجازة مرضية. قلت:

(١) وكان هو الوزير الفعلي كما نقرأ في مواضع أخرى من الذكريات، أما الوزير الرسمي فصورة بلا فعل ومنصب بلا سلطان.

ولكني لست مريضاً. فضحك وقال: سنختار لك مرضاً ترضاه!»[1].

٥ ـ في القضاء

رأيتم كيف انتهى الأمـر بجدّي في إجازةٍ قسـريةٍ بعد حوادث دير الزور أواخر سنة ١٩٤٠. لقد أرادوا له أمراً وأراد الله له أمراً، وكان الخير فيما اختاره له الله، فلقد هيأت له هذه الحادثة ترك التعليم والدخول في سلك القضاء، دخله ليمضي فيه ربع قرن[2] كاملاً؛ خمسة وعشرين عاماً من أخصب أعوام حياته. خرج من الباب الضيق للحياة ممثلاً في التعليم بمدرسة قرية ابتدائية، ودخلها من أوسع أبوابها قاضياً في النبك ثم في دوما (من قرى دمشق)، ثم قاضياً ممتازاً في دمشق، فمستشاراً لمحكمة النقض في الشام ثم مستشاراً لمحكمة النقض في القاهرة أيام الوحدة مع مصر. اسمعوا بعض ما قال في هذا المقام: «لقد تنقلت في البلاد ورأيت أصنافاً من العباد، ولكني لم أخالطهم ولم أداخلهم. كنت ألقاهم من فوق أعـواد المنابر أو من خلال أوراق الصحف والمجلات أو من على منبـر التدريـس، والذين لقيتهـم إنما كان لقائـي بهم عارضـاً؛ ألامسـهم ولا أداخلهم، فلما وليت القضاء رأيت ما لم أكن أعرف من قبل»[3].

هذه المرة أيضاً ظهـر نبوغ علي الطنطاوي وبـان تميزه. لقد أراد ـ أبداً ـ أن يكون متقنـاً لعمله مجيداً له مخلصاً فيـه، وما كان ليقبل أن

---

(١) الذكريات: ٤/ ١٥٩.

(٢) مارس جدي القضاء عملياً من عام ١٩٤١ إلى حين سفره إلى المملكة العربية السعودية في عام ١٩٦٣، أي نحواً من ثلاث وعشرين سنة، ولكنه بقي ـ رسمياً ـ قاضياً حتى أواسط عام ١٩٦٦ حين سُرّح عددٌ من القضاة الذين لم يسايروا عهد الاشتراكية الجديد في الشام (انظر خبر الإقالة في الذكريات: ٨/ ٦٩).

(٣) الذكريات: ٤/ ١٩٨.

يستغفله أو يستغله أحد، فلما نجح في امتحان القضاء وعُيّن قاضياً في النبك (وهي بلدة في جبال لبنان الشرقية) لم يسارع إلى استلام العمل، بل طلب من الوزارة أن تمهله شهراً: «لا لألعب فيه وأستمتع، ولا لأسافر وألهو، بل لأواظب في المحكمة الشرعية في دمشق حتى أعرف المعاملات كلها: من عقد النكاح، وحصر الإرث، وتنظيم الوصية، إلى الحكم في قضايا الإرث والوقف والزواج...»[1].

وبعد هذا الاستعداد وفقه الله فكان ابتداء عمله بالقضاء خير ابتداء، فقد قابَلتْه في محكمة النبك قضية ضخمة جداً؛ إضبارتها تعدل في عدد صفحاتها ـ كما قال ـ جزأين من القاموس المحيط لا جزءاً واحداً، وكان كبار المحامين يأتون من دمشق للنظر فيها، فنظر فيها فبدا له أمرٌ لم يكن أحدٌ قد انتبه له. قال: «وأصبح الصباح وغدوت على المحكمة، وجاء المحامون الكبار... والمحامون أمام القاضي الجديد كالطلاب الكبار مع المعلم الجديد: تكون معركة خفية بين الفريقين؛ المحامون يريدون أن يعرفوا قوة هذا القاضي من ضعفه، وعلمه من جهله، وحزمه من لينه. ففاجأتهم بقرار: «سُئل الطرفان عن كلامهما الأخير»، وهذا القرار إنما يكون بعد استيفاء المرافعات في آخر الدعوى ليعلن بعده ختام المحاكمة ويصدر الحكم. فتعجبوا واعترضوا عليّ وتعالت أصواتهم، وحسبوا أني قاضٍ ضعيفٌ لا يدري ما يقول. ولكني أخذتهم بالحزم وأفهمتهم أن هذا قرار لا يجوز لهم الاعتراض عليه إلا بعد ختام الدعوى، فسكتوا على مضض ينتظرون ماذا سيكون مني، يتوقعون أن يسمعوا قراراً يتخذونه نكتة بينهم، يتندرون به على وزارة العدل التي تقيم في القضاء من لا يعرف أصول القضاء، فإذا القرار... وهكذا انتهت المحاكمة. ونظرت إليهم فإذا هم مثل الذي يصحو من حلم عجيب وقد تنبّهوا إلى أنهم كانوا يسيرون في

---

(١) الذكريات: ٤/١٦٦.

طريق لا يوصل، ويضحكون من أنفسهم، ويهنئونني على هذا القرار. وذهبوا فحدثوا به في الأوساط القضائية في الشام، فكان ـ والحمد لله ـ خير ابتداء لعملي في القضاء»[1].

أمضى جدي في النبك قاضياً لها نحو أحد عشر شهراً، ثم كانت تنقلاتٌ في وزارة العدل بين القضاة فنُقل قاضياً إلى دوما؛ وهي قرية من القرى المحيطة بدمشق، وقد اتصلت اليوم بها أو كادت، وكان بينهما في تلك الأيام (عام ١٩٤٢) خط ترام طوله ثلاثة عشر كيلاً يقطع الطريق في ساعة. وكانت محكمة دوما هي الطريق إلى محكمة دمشق، فمن ولي قضاءها انتقل منها فصار قاضياً في المحكمة الكبرى في دمشق. قال: «وقد انتدبت أول الأمر أياماً معدودة إلى محكمة دمشق فكان انتدابي إليها وعملي الرسمي في دوما، ثم صرت قاضياً رسمياً في دمشق، ثم القاضي الأول في المحكمة، الذي كانوا يدعونه القاضي الممتاز»[2].

لقد صار قاضي دمشق الممتاز، فماذا صنع في هذا الموقع الذي شغله عشر سنين كاملات؛ من سنة ١٩٤٣ إلى سنة ١٩٥٣ حين نُقل مستشاراً لمحكمة النقض؟ قال: «كان عنوان أول مطبوعة صدرت لي سنة ١٣٤٧ هو «في سبيل الإصلاح»، ولقد حرصت عمري كله أن أسلك هذا السبيل، وكنت أوفق بحمد الله أحياناً وتعترضني العقبات فأتنكبها حيناً. فتصوروا حالي وقد لبثت سنين أرى الرشوة والظلم والفساد ولا أقدر على إزالته ولا على تقليله؛ كانت عيني بصيرة بالمعايب ولكن يدي كانت قصيرة عن محوها. كنت أرى السيارة تسير على غير الطريق، ولكن مقودها بيد غيري. كنت أعرف المرض وعندي دواؤه ولكن لا سبيل إلى إيصاله إلى المريض. فالآن طالت يدي القصيرة، وتسلمت أنا مقود

---

(١) لم أدرج القصة بتفاصيلها، وهي في الذكريات: ٤/ ١٦٧.

(٢) الذكريات: ٤/ ٢٥٩.

السيارة، وفُتح لي الباب لأحمل إلى المريض العلاج. إنها لذة من أكبر اللذاذات؛ أن ترى الباطل غالباً والحق مغلوباً وترى نفسك عاجزاً ثم تُعطى القوة على دحر الباطل وعلى نصرة الحق...»[1].

ولكن أترونه اكتفى بهذه الأفكار والتأملات؟ لقد أحس بالمسؤولية الجسمية التي أُلقيت عليه حين صار إليه أمر المحكمة الشرعية، فلبث ليالي أرِقاً يفكر ماذا يصنع حتى اهتدى إلى فكرة عجيبة انتظم بها أمر المحكمة[2]، وانقطع بها ما كان من علل التسويف على العامة أو المحاباة للخاصة. «ثم رأيت أن هذا كله علاج مؤقت لا يكاد يأتي منه الإصلاح المنشود، فعملت على إبدال مَن في الديوان واحداً بعد واحد، وأعانني الله أولاً بإخلاصي وبأنني لا أبتغي من ذلك جرّ منفعة لنفسي ولا درء مضرّة عنها، والله يعلم ذلك مني...»[3]. أما تفصيل سيرته وما عمله في محكمة دمشق فله حديث طويل، فانظروه في آخر الجزء الرابع من الذكريات المنشورة.

وقد اقترح ـ لمّا كان قاضياً في دوما ـ وضع قانون كامل للأحوال الشخصية، فكُلِّف بذلك عام ١٩٤٧ وأوفد إلى مصر مع عضو محكمة الاستئناف الأستاذ نهاد القاسم (الذي صار وزيراً للعدل أيام الوحدة) فأمضيا تلك السنة كلها هناك، حيث كُلف هو بدرس مشروعات القوانين الجديدة للمواريث والوصية وسواها كما كُلف زميله بدرس مشروع القانون المدني. وقد أعد هو مشروع قانون الأحوال الشخصية كله وصار هذا المشروع أساساً للقانون الحالي، وأُشير إلى ذلك في مذكرته الإيضاحية.

---

(١) الذكريات: ٤/ ٢٧٠.

(٢) وكان ذلك أول تغيير أدخله على المحكمة، وله قصة عجيبة في الطريقة التي نفذه فيها، فاقرؤوها في موضعها من الذكريات: ٤/ ٢٧١ وما بعدها.

(٣) الذكريات: ٤/ ٢٧٥.

وكان القانـون يخوّل القاضي الشـرعي في دمشق رياسـة مجلس الأوقاف وعمدة الثانويات الشرعية، فصار علي الطنطاوي مسؤولاً عن ذلك كله خلال العشر السنين التي أمضاها في قضاء دمشق، فقرّر أنظمة الامتحانات في الثانويات الشرعية وكان له يدٌ في تعديل قانون الأوقاف ومنهج الثانويات، ثم كُلف عام ١٩٦٠ بوضع مناهج الدروس فيها فوضعها وحده ـ بعدما سافر إلى مصر واجتمع فيها بالقائمين على إدارة التعليم في الأزهر ـ واعتُمدت كما وضعها.

٦ ـ في المملكة

في عـام ١٩٦٣ قـدم جـدي إلى الرياض مدرّسـاً في «الكليـات والمعاهد» (وكان هذا هو الاسم الذي يُطلَق على كلّيَتي الشريعة واللغة العربية، وقد صارت ـ من بعد ـ جامعة الإمام محمد بن سعود)، وفي نهاية السنة عاد إلى دمشق (لإجراء عملية جراحية بسبب حصوة في الكلية) عازماً ألّا يعود إلى المملكة في السنة التالية، إلا أن عرضاً بالانتقال إلى مكة للتدريس فيها حمله على التراجع عن هذا القرار.

وهكذا انتقل علي الطنطاوي إلى مكـة ليمضي فيها (وفي جـدة) خمساً وثلاثين سنة، فأقام في أجياد مجاوراً للحرم إحدى وعشرين سنة (من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٨٥)، ثم انتقل إلى العزيزية (في طرف مكة من جهة منى) فسكنها سبع سنوات، ثم إلى جدة فأقام فيها حتى وفاته ـ يرحمه الله ـ في عام ١٩٩٩.

بدأ جدي هذه المرحلة الجديدة من حياته بالتدريس في كلية التربية بمكة، ثم لم يلبث أن كُلف بتنفيذ برنامج للتوعية الإسلامية، فترك الكلية وراح يطوف على الجامعات والمعاهد والمدارس في أنحاء المملكة لإلقاء الدروس والمحاضرات، وتفرَّغَ للفتوى يجيب عن أسئلة وفتاوى الناس في

الحرم - في مجلسٍ له هناك - أو في بيته ساعات كل يوم، ثم بدأ برنامجيه: «مسائل ومشكلات» (في الإذاعة) و«نور وهداية» (في الرائي)[1]، اللذين قُدر لهما أن يكونا أطول البرامج عمراً في تاريخ إذاعة المملكة ورائيها.

هذه السنوات الخمس والثلاثون كانت حافلة بالعطاء الفكري للشيخ، ولاسيما في برنامجيه اللذين استقطبا - على مرّ السنين - ملايين المستمعين والمشاهدين وتعلّقَ بهما الناس على اختلاف ميولهم وأعمارهم وأجناسهم وجنسياتهم، ولم يكن ذلك بالأمر الغريب؛ فلقد كان علي الطنطاوي من أقدم مذيعي العالم العربي، بل لعله من أقدم مذيعي العالم كله؛ فقد بدأ يذيع من إذاعة الشرق الأدنى من يافا من أوائل الثلاثينيات، وأذاع من إذاعة بغداد سنة ١٩٣٧، ومن إذاعة دمشق من سنة ١٩٤٢ لأكثر من عقدين متصلين، وأخيراً من إذاعة المملكة ورائيها نحواً من ربع قرن متصل من الزمان.

هذا العمل ملأ عليه وقته كله خلال تلك السنوات، وقد عشت معه - عليه رحمة الله - بعضاً من تلك الأيام ما زلت أسترجع ذكراها إلى اليوم. لقد جئت إلى المملكة في مطلع عام ١٩٧٧ لدراسة الهندسة في جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وكنت أمضي في نهاية كل أسبوع يومين أو ثلاثة أيام في بيته بمكة فأراه كيف يصنع. كان يُمضي كلَّ يومٍ ساعاتٍ عاكفاً على أسئلة المستمعين والمشاهدين قراءةً وفرزاً ليختار منها ما يصلح للإجابة؛ وما كان يسعه أن يجيب عن كل سؤال يأتيه لأنه كان يستلم من الأسئلة في كل أسبوع مئاتٍ (حقيقة لا مجازاً) ووقتُ البرنامجين لا يكاد يتّسع لغير عشرٍ منها أو عشرين، ثم كان يراجع المسائل في أمّات الكتب ويضع تعليقاتٍ على الأسئلة بخطه في بعض الأحيان. وكان - فوق ذلك - يتفرغ

---

(١) بدأ هذا البرنامج نحو عام ١٩٦٧، وكان له - قبله - برنامجٌ عنوانه «صور من أمجادنا».

للإجابـة عن أسئلة المسـتفتين بالهاتف بين العصـر والمغرب كل يوم. ولطالما أعلن في الإذاعة والرائي أن ذلك هو الوقت الذي يتلقى فيه الأسئلة ولكن الهاتف كان يرنّ في كل ساعة من ليل أو نهار! فإذا جاء المغرب كان ينطلق إلى الحرم فيجلس في موضع له هناك لا يفارقه بين العشاءين فيأتيه من الناس من شاء ويسأله من شاء، فكان ذلك مجلساً مفتوحاً للعلم والفتوى. فإذا عاد من الحرم بعد العشاء فلا يستقبل أحداً (كما أنه لا يستقبل أحداً قبل العصر) ويعود إلى قراءته ومراجعاته وشؤون أهل بيته.

هكذا أمضى جدي تلك السنوات، حتى إذا جاوز الثمانين بدأ جسمه (الذي حمله في مسيرة حياته الطويلة الحافلة) بالتعب، وما عاد يقوى على العمل، فآثر ترك الإذاعة والرائي.

وكـان ـ قبل ذلك ـ قد لبث نحو خمـس سنين ينشـر ذكرياتـه في الصحف؛ حلقةً كل يوم خميس، فلما صار كذلك وقَفَ نشرَها (وكانت قد قاربت مئتين وخمسين حلقة) وودّع القرّاء فقال: «لقد عزمت على أن أطوي أوراقي، وأمسح قلمي، وآوي إلى عزلة فكرية كالعزلة المادية التي أعيشها من سنين، فلا أكاد أخرج من بيتي، ولا أكاد ألقى أحداً من رفاقي وصحبي»[1].

ثم أغلق عليه باب بيته واعتزل الناس إلا قليلاً من المقربين يأتونه في معظم الليالي زائرين، فصار ذلك له مجلساً يطل من خلاله على الدنيا، وصار منتدى أدبياً وعلمياً تُبحث فيه مسائل العلم والفقه واللغة والأدب والتاريخ. وبات الشيخ ـ في آخر أيامه ـ ينسى بعضاً من شؤون يومه؛ فربما صلى الفريضة مرتين يخشى أن يكون نسيها، وربما نسي ما كان في اليوم الذي مضى، ولكن الله أكرمه فحفظ عليه توقد ذهنه ووعاء ذاكرته حتى آخر يوم في حياته. لقد صار أخيراً يتورع عن الفتوى مخافة الزلل

---

(١) الذكريات: ٨/ ٣٤٠.

والنسيان، ولكن الواقع أنه كان قادراً على استرجاع المسائل والأحكام بأحسن مما يستطيعه كثير من الرجال والشبان، وكان ـ حتى في الشهر الذي توفي فيه ـ تُفتتح بين يديه القصيدة لم يرها من عشر سنين أو عشرين فيُتمّ أبياتَها ويبين غامضها، ويُذكَر العَلَم فيُترجم له، وربما اختُلف في ضبط مفردة من مفردات اللغة أو في معناها فيقول هي كذلك، فنفتح القاموس المحيط (وهو إلى جواره، بقي كذلك حتى آخر يوم) فإذا هي كما قال.

ومضت به على هذه الحال سنوات حتى كَلَّ قلبُه الكبير فما عاد قادراً على المضي بعدُ، فلما كانت آخر السنوات أُدخل المستشفى مرات وهو يشكو كل مرة ضعفاً في قلبه، وكانت الأزمات متباعدة في أول الأمر ثم تقاربت، حتى إذا جاءت السنة الأخيرة تكاثرت حتى بات كثيرَ التنقل بين البيت والمستشفى. ثم أتم الله قضاءه فمضى إلى حيث يمضي كل حي، وفاضت روحه ـ عليها رحمة الله ـ بعد عشاء يوم الجمعة، الثامن عشر من حزيران، عام ١٩٩٩ في قسم العناية المركزة بمستشفى الملك فهد بجدة، ودُفن في مكة في اليوم التالي بعدما صُلّي عليه في الحرم المكي الشريف.

اللهم ارحمه برحمتك رحمة واسعة، اللهم اغفر له وأَحسنْ إليه حيث هو، اللهم أبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار، آمين.

وبعد: لم يكن كل ماسبق سوى صفحات معدودات ولمحات محدودات من سيرة حياة جدي، علي الطنطاوي، الحافلة.

لقد أدركت ـ منذ البداية ـ صعوبة حصر الحديث عنه في المساحة التي حددها الأخ الناشر، ولكن عزائي أن كتاباً آخر شاملاً سيغطي ما فات الحديث عنه في هذه السيرة الموجزة إن شاء الله.

لقد كان الشيخ من أقدم معلمي القرن العشرين وكان من أقدم صحافييه ومن أقدم مذيعيه كما علمتم من هذا الكتاب، وقد كانت له ـ بعد ـ مشاركة في طائفة من المؤتمرات، منها حلقة الدراسات الاجتماعية التي عقدتها جامعة الدول العربية في دمشق على عهد الشيشكلي، ومؤتمر الشعوب العربية لنصرة الجزائر، ومؤتمر تأسيس رابطة العالم الإسلامي، واثنين من المؤتمرات السنوية لاتحاد الطلبة المسلمين في أوروبا. ولكن أهم مشاركة له كانت في المؤتمر الإسلامي الشعبي في القدس عام ١٩٥٣، والذي تمخضت عنه سفرته الطويلة في سبيل الدعاية لفلسطين، وقد جاب فيها باكستان والهند والملايا وأندونيسيا.

ولم تكن تلك أولَ رحلة طويلة يرحلها (وإن تكن الأبعد والأطول)، فقد شارك في عام ١٩٣٥ في الرحلة الأولى لكشف طريق الحج البري بين دمشق ومكة، وقد حفلت تلك الرحلة بالغرائب وحفّت بها المخاطر، ومن أحبَّ الاطلاع على تفصيلها فلينظره في كتاب: «من نفحات الحرم».

ويبقى ـ بعد ذلك ـ الكثير مما لم أتحدث عنه، ويبقى علي الطنطاوي رجلَ العصر الذي لا تكفي في الحديث عنه مثل هذه الصفحات ولا للإحاطة بسيرته وأثره طِوال المقالات؛ فأسأل الله أن يوفقني إلى إخراج كتاب كامل في سيرته ومآثره، وليعنّي من قرأ هذا الكتاب بدعوةٍ بظهر الغيب تمكنني من تحقيق هذا الأمل وإنجاز هذا العمل. والله خير معين.

* * *

الفصل الثاني
تعريف بمؤلفاته

الكتابات الأدبية :

١ ـ فِكَر ومباحث

٢ ـ صور وخواطر

٣ ـ مع الناس

٤ ـ هتاف المجد

٥ ـ مقالات في كلمات

٦ ـ قصص من الحياة

٧ ـ صيد الخاطر
(تحقيق وتعليق)

الكتابات التاريخية :

١ ـ أبو بكر الصديق

٢ ـ أخبار عمر

٣ ـ رجال من التاريخ

٤ ـ أعلام التاريخ (٧أجزاء)

٥ ـ قصص من التاريخ

٦ ـ حكايات من التاريخ

٧ ـ دمشق

٨ ـ الجامع الأموي

السيرة الذاتية :

١ ـ من حديث النفس

٢ ـ من نفحات الحرم

٣ ـ ذكريات علي الطنطاوي (٨ أجزاء)

٤ ـ بغداد : مشاهدات وذكريات

٥ ـ في أندونيسيا

الكتابات الإسلامية :

١ ـ فصول إسلامية

٢ ـ في سبيل الإصلاح

٣ ـ تعريف عام بدين الإسلام

٤ ـ فتاوى علي الطنطاوي

* * *



تقديم

علمتم ـ مما مضى ـ أن الشيخ علي الطنطاوي قد نشر أول مقالة له في صحيفة «المقتبس» ولمّا يتم السابعة عشرة من عمره، ثم هو لم يتوقف عن الكتابة حتى آخر سني حياته، فاحسبوا كم أمضى وهو يكتب وقدّروا كم كتب من الصفحات. لقد بلغ عدد ما نُشر ـ مما كَتب ـ ثلاثة وثلاثين كتاباً وعشرات الرسائل الصغيرة، أما ما لم يُجمع في كتب ـ مما نُشر من مقالات ـ فيبلغ المئات، منها مقالات ضاعت أصولها وفُقدت الصحف التي نُشرت فيها أول مرة، ومنها ما يُجمع الآن ويُرتَّب لعل الله يوفق إلى إخراجه في كتبٍ عما قريب[1].

ولسوف يلاحظ قارئ هذه الكتب أن معظمها تجميعٌ لمقالات نشرت أول الأمر في صحف ومجلات شتى أو أحاديثَ ألقيت عبر الإذاعات في أزمنة وظروف مختلفة، ثم ضُمَّت الأشباه بعضها إلى بعض ونظمت ورتبت حتى جاءت منها كتب متسقة في موضوعاتها منسجمة في أجزائها. وقد يتساءل البعض في هذا المقام: لماذا لم يكتب علي الطنطاوي كتباً كاملة بالشكل المألوف؛ كتباً ذات فصول مترابطة وسياق واحد؟ والجواب كامن في طبيعة الشيخ؛ فهو يؤجل قضاء كل أمر حتى لا يبقى بينه وبين نفاد الوقت غير أمد يسير، ثم ينطلق بهمّةٍ وسرعة لا يطيقهما غير قليل من

(١) دُفع إلى المطبعة من أسابيع معدودة أول هذه الكتب؛ وهو الجزء الثاني من «مقالات في كلمات» الذي لم ينشر من قبل أبداً. والعمل الآن جارٍ في الكتاب الثاني واسمه «فصول اجتماعية» وما هذا إلا بتوفيق من الله فله الحمد أولاً وآخراً.

الناس، فلا ينقضي الوقت إلا والعمل قد أُنجز. لقد وصف هو تلك الخصلة فيه فقال: «الطالب العاقل يعدّ للامتحان من أول يـوم، يمشـي على مهل خطوةً خطوةً مثل سلحفاة لافونتين، فهذا أسلم من أن يقلد ـ كما قلدت أنا ـ الأرنب، وكما أصنع دائماً. إن هذا من عيوبي، وعلى الكاتب أن يجنب قرّاءه عيوبه. إنني أؤخر كل عمل إلى آخر وقته ثم أقوم أعدو كالمجنون. لقد تركت الحكمة العربية الصحيحة: «لا تؤخر عمل اليوم إلى غد» وأخذت الكلمة الحمقاء للكاتب الفاسق أوسكار وايلد: «لاتؤخر إلى غد ما تستطيع عمله بعد غد». ولقد أضاع عليّ التسويف خيراً كثيراً في الدنيا وأسأل الله ـ ضارعاً إليه ـ ألاّ يضيع عليّ خير الآخرة»[1].

فمن أجل هذه الخصلة وهذا الطبع فيه، كان جدي يؤخر كتابة المقالة حتى ما يكون بينه وبين موعد تسليمها للمطبعة غير أمد يسير، ثم يكتبها على عجل ويدفعها على عجل فتدرك النشر في اللحظة الأخيرة. ولطالما أملى عليّ بالهاتف ـ وهو في مكة ـ حلقات من ذكرياته لمّا نشرت في جريدة «الشرق الأوسط»، فكان يمليها عليّ عصر الإثنين فأركض بها إلى مكتب الجريدة فأسلمها في ربع الساعة الأخير من الوقت المتاح (وتتكرر القصة أسبوعاً بعد أسبوع)، ولو لم يرتبط بموعد نشرٍ لما كتب قط. لقد كان يستثقل الكتابة ويُعرِض عنها ثم لا يُقبِل عليها إلا راغماً لأن أمراً أقوى من صعوبة القيام بالأمر كان يدفعه إليه، ذلكم هو الارتباط بالوعد أن تُسلَّم المقالة في الموعد المضروب. ولئن كان جدي قد صرح بامتلاكه علة التسويف والتأجيل فإن مما لم يذكره عن نفسه أنه كان صادق الوعد، لا أكاد أذكره أبداً ـ وقد عرفته، منذ وعيت، قرابة أربعين عاماً ـ نكث وعداً أو أخلف موعداً.

فلما كان كذلك فإنه لم يجد أبداً الهمة ليقعد إلى طاولة ويجمع

---

(١) الذكريات: ٢/ ١٨١.

أوراقاً ويَمضي في تدوين كتاب من أوله إلى آخره، إلا في بعض كتاباته المبكرة في أول الشباب (ومنها كتاباه العظيمان عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما). أما الاستثناء الوحيد ـ بعد تلك الحقبة المبكرة ـ فكان في الكتاب الذي وفقه الله إليه وفتح به عليه، والذي مازال يرجو به ثواب الله ورضاه حتى آخر أيامه، وهو كتاب «تعريف عام بدين الإسلام»، ولنا إليه عودة مفصلة من بعدُ إن شاء الله.

* * *

لقد كتب علي الطنطاوي في فنون الأدب جميعاً: المقالة، والقصة القصيرة، والمسرحية، والسيرة الذاتية، وأدب الأطفال. ولكن أكثر ما كتبه كان من المقالات التي اتسعت مجالاتها وتنوعت موضوعاتها حتى شملت إحياء الدين، والدعوة إلى الإصلاح، والدفاع عن الفضيلة، ومحاربة المفسدين والرد على المبتدعين، ومعالجة هموم الناس وحل مشكلات المجتمع. أما قضايا الأمة المسلمة ومجاهدة اليهود والمستعمرين فموضوع لا يكاد يخلو منه كتاب من كتبه.

سوف أستعرض ـ في الصفحات الباقيات من هذا الكتاب ـ سائر كتب جدّي، علي الطنطاوي، بعدما نَظَمْتها في أربع مجموعات: الكتابات الإسلامية (الإسلاميات)، والكتابات الأدبية (الأدبيات)، والكتابات التاريخية (التاريخيات)، والسيرة الذاتية (الذكريات). على أنني أسارع إلى القول بأن هذا التقسيم فنيٌّ محض وأن فيه شيئاً من الاعتساف؛ لأن الشيخ لم يكن يكتب لغير ما هدف، ولقد خاض ـ في مستهل حياته، وهو على مقاعد الدراسة الجامعية ـ معركة أدبية مع أستاذه الشاعر شفيق جبري كان موضوعها: «هل يكون الأدب للأدب أم يكون للحياة؟»[1]، وكان رأيه الحاسم الجازم (الذي لم يغيره ولم يتركه طَوال

---

(١) انظر لتفصيل تلك المعركة الأدبية ما جاء في الذكريات: ٢/ ٢٠٣.

عمره) أن الأدب إنما هو لخدمة الدين والوطن والأخلاق، فإن خلا من أي من هذه فهو هذر لا قيمة له. فما دام هذا هو رأيه الذي أعلنه وتبناه في الأدب؛ فقد كانت كتاباته جميعاً ترجمة لهذا الرأي وتعبيراً عنه، فلم يكد يخلو شيء منها من دعوة إلى الدين أو دفاع عن الوطن أو انتصار للفضيلة، وهي سمات عامة تطبع «أدبياته» كما تطبع «إسلامياته» و«تاريخياته» وسائر كتاباته.

فأما «الأدبيّات» فتضم الكتب التالية: «فِكَر ومباحث» و«صور وخواطر» و«هُتاف المجد» و«مقالات في كلمات» و«مع الناس» و«قصص من الحياة» و«دمشق»، بالإضافة إلى تحقيق كتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي والتعليق عليه.

وأما «الإسلاميات» فتضم الكتب التالية: «فصول إسلامية» و«في سبيل الإصلاح» و«تعريف عام بدين الإسلام» و«فتاوى».

وتضم «التاريخيات» الكتب التالية: «أخبار عمر» و«أبو بكر الصديق» و«رجال من التاريخ» و«قصص من التاريخ» و«الجامع الأموي» و«دمشق»، بالإضافة إلى سلسلتَي «أعلام التاريخ» و«حكايات من التاريخ».

وأخيراً، تضم «الذكريات» مجموعة الذكريات التي صدرت في ثمانية أجزاء، بالإضافة إلى الكتب التالية: «من حديث النفس» و«بغداد» و«من نفحات الحرم» و«في أندونيسيا».

على أنني سأقف قليلاً ـ قبل البدء في استعراض هذه الكتب ـ لألقي نظرة سريعة على الآثار القديمة لعلي الطنطاوي؛ وهي الكتب التي نشرها في مستهل حياته ونفدت فلم يُعِدْ طبعها من بعد.

* * *

الآثار القديمة

بدأ علي الطنطاوي الكتابة والنشر مبكراً؛ فأما أول مقالة نُشرت له في صحيفةٍ فقد مرّ بكم خبرها، وكان في السابعة عشرة من عمره. وأما أول كتاب طبعه فكان في سنة ١٩٣٠ (ولمّا يُتِمَّ الحادية والعشرين من عمره) واسمه «الهيثميات». وفي تلك السنة أيضاً والتي تلتها أصدر علي الطنطاوي مجموعتين من الرسائل: رسائل «في سبيل الإصلاح»، ورسائل «سيف الإسلام»، كما نشر في السنة نفسها كتاب «بشار بن برد». هذه المجموعة من المؤلفات ـ بالإضافة إلى: «كتاب المحفوظات» و«في بلاد العرب» و«عمر بن الخطاب» و«من التاريخ الإسلامي» ـ هي الآثار القديمة لعلي الطنطاوي التي اختفت من الأسواق من عشرات السنين ولم تطبع مرة أخرى. فلماذا لم يُعِد طباعتها من بعد؟ تعالوا نستعرض هذه المؤلفات ببعض التفصيل؛ ففيها الجواب على هذا السؤال.

فأما باكورة كتبه؛ «الهيثميات»، فيضم مجموعة من المقالات التي نشرها في تلك السنة في «فتى العرب» و«الزهراء» و«الناقد» وعددها اثنتا عشرة مقالة، وقد جاء الكتاب في تسعين صفحة من القطع المتوسط (١٤×٢١)، وفي آخره «كلمة ختامية» قال فيها: «إنني أنشر هذا السفر راضياً عنه، ولكن لا أَبعدَ الله ذلك اليوم الذي أودُّ فيه لو خسرت مئة دينار ـ كنتُ أملكها ـ ولم أكن نشرته؛ لأنني أشبه بصاعد جبلٍ يبلغ منه التعب ويتندّى جبينه من العرق، فيلتفت فيراه بلغ عالياً فيسر ويفرح، ولكنه يعاود الصعود فيرى ما حسبه عالياً يكاد يلصق بالأرض. ولِمَ لا؟ ولِمَ لا أندم إذا بلغت الأربعين (وما أحسبني بالغها) على ما نشرته وأنا أضرب بعمري بين العشرين والواحدة بعد العشرين؟ ولكن هذا لا يمنعني من نشره؛ لأن من لا يأتي بالقليل لا يأتي بالكثير، ومن لا ينتقل خطوة

فخطوة لا يقطع الأميال ولا يجوب البلاد!».

وأما «الرسائل» فقد كانت بواكير كتاباته، غلبت عليها حماسة الشباب وعاطفته وكانت (أو كان أكثرها) مرتبطة بظروف زمانها وأحوال عصرها. وهو قد تحدّث في ذكرياته المنشورة عنها (انظر الحلقتين ٣٨ و٣٩ في الجزء الثاني)، غير أنني أقبس ـ فيما يلي ـ تعريفاً بها عثرت عليه بقلمه بين أوراقه (ممّا لم يُنشر). قال:

«أول كتبي المطبوعة رسائل سميتها رسائل في سبيل الإصلاح، نُشرت سنة ١٣٤٨، وهي أربع. وضعتُ في أولاها البذرة التي جاءت ثمرتها بعد نحو نصف قرن في أوائل كتابي «تعريف عام» عن وجود الله ومقدمات الإيمان. وجاء فيها نقدٌ صريح موجع لتقصير العلماء، وإهمال دائرة الأوقاف، وفساد المجتمع. وجاء في واحدة منها (سميتها: «دمشق بعد تسعين عاماً») أغربُ ما يصل إليه خيالٌ جامحٌ لشابٍّ عما يمكن أن يكون في دمشق من الغرائب بعد تسعين سنة، فكان أغربَ شيء أن الذي رأيناه الآن بعد خمسين سنة فقط (أي وقت كتابة هذه الكلمات) لم يصل إليه خيالي ولم يشر إليه مقالي. وقد أثارت هذه الرسائل طوائف من الناس، أكثرهم من المشايخ ومن جماعة الأوقاف، وأُلفت في الرد عليها رسائل منها «الإفصاح عمّا في رسائل الإصلاح» للشيخ أحمد الصابوني. ثم أصدرتُ ـ في السنة التالية ـ سلسلةً جديدةً عنوانها «رسائل سيف الإسلام» في الدعوة إليه والذبِّ عنه، بلغت ثماني رسائل، وألحقتُ بها رسائل أخرى بلغت سبعاً. وكانت تُوزع مجاناً. ولهذه الرسائل قصة طريفة؛ وهي أن مكتبة عَرَفة في المسكية (أي في سوق الكتب) عند باب الجامع الأموي كانت مجمع الأدباء، وكنا فيها يوماً فوقف علينا شاب لانعرفه، وخاض في حديثنا، فتبين أنه من دعاة البهائية. فلما طال المجلس قلت له: دعك من هذا الكلام، فالمسألة مسألة مال، فكم تدفع إن أنا اتبعت مذهبك؟ فأخرج ليرتين ذهبيتين، وكان لذلك قيمة فأخذتُهما وذهبت

فكتبت الرسالة الأولى من رسائل «سيف الإسلام» رددت فيها على البهائية وغيرها من الفرق الضالة، وكتبت على غلافها: «طُبعت بنفقة فلان (وذكرت اسمه صريحاً) وهي توزع مجاناً». ومن هذه الرسائل رسالة «لماذا أنا مسلم؟»، ورسالة في ذكرى المولد النبوي، ورسالة في وجوب الدعوة إلى الله، ورسالة في الصلاة، ورسالة في الشيوعية، ورسالة في الأدب القومي فيها ردٌّ على الأستاذ شفيق جبري، ورسالة موضوعها بدعة جديدة جاء بها رجل يدّعي أنه المهدي صدرت سنة ١٣٥٠».

وأما كتاب «بشار بن برد» ـ الذي نُشر عام ١٩٣٠ ـ فلم يكن سوى تدوينٍ لبعض المحاضرات التي ألقاها على طلاب الكلية العلمية الوطنية في دمشق في تلك السنة. وهو كتاب يقع في أربع وتسعين صفحة من القطع الصغير (١٢×١٦)، وفي أول صفحة منه مقدمة من الناشر فيها: «هذه فاتحة محاضرات ألقاها في صف الجامعة من الكلية العلمية الوطنية بدمشق صديقنا السيد محمد علي الطنطاوي، رأينا حسناً أن ننشرها لتعمّ فائدتها، وغايتنا في ذلك خدمة الأدب والمتأدبين». وقد صرّح جدي في أكثر من مقام بأن ذلك الكتاب من الآثار التي لا يرتضيها ولا يريد إعادة نشرها.

وبعض الكتب القديمة أُعيدت صياغته في أسلوب جديد، وطُبع وما يزال بين أيدي الناس. فكتاب «عمر بن الخطاب» الذي نُشر في جزأين عام ١٩٣٤ في نحو ثمانمئة صفحة أعيدت صياغته ليصبح الكتاب المعروف «أخبار عمر». و«من التاريخ الإسلامي» الذي نشر عام ١٩٣٩ صار «قصص من التاريخ» بعد بعض التعديلات.

وأخيراً، يبقى في قائمة الكتب القديمة كتابان هما: «كتاب المحفوظات» و«في بلاد العرب».

فأما الأول فقد صدر عام ١٩٣٦، وهو كتاب مدرسي يضم نحو

ثلاثين درساً، وكل درس يتألف من نص منتخَب يأتي بعده تفسيرٌ لغوي يشرح المفردات الغامضة فيه، ثم تفسيرٌ أدبي يتضمن تعريفاً بالمؤلف ويبين موضوعَ النص وغرضَه وأفكارَه، وفي آخر الدرس «المحادثة»؛ وهي أسئلة تدريبية حول النص. وقد تفاوتت الاختيارات بين آيات وأحاديث وقطع نثرية وشعرية، من العصور الأدبية القديمة والحديثة جميعاً، ولكنها تشترك كلها في تحقيق المقاصد التي أرادها المؤلف منها وصرح عنها في مقدمة الكتاب: «فمَن قرأها ونظر فيها عرف ما هو هذا العمل، وما هي روحه، وما غايته، وأدرك أننا نرمي من وضع هذه الرسالة اليوم (ووضع غيرها غداً) إلى غايات ثلاث: غاية مدرسية... وغاية أدبية... وغاية أخلاقية هي أبعد غاياتنا وأشرف مقاصدنا؛ وهي أن ننشئ التلميذ على الرجولة والقوة، وحب الجد والعمل، وكراهية العبث والكسل والتخنث، وأن نطبعه بالطابع العربي الإسلامي في أخلاقه وأفكاره وعواطفه». ويقع الكتاب في ست وتسعين صفحة من القطع المتوسط (١٤×٢١).

أما آخر الآثار القديمة فهو كتاب «في بلاد العرب»، ولم أعثر ضمن أوراق جدي ـ رحمه الله ـ وكتبه إلا على قطعة منه تضم ستاً وستين صفحة من نفس حجم الكتاب السابق، ولعله يكون قريباً منه في عدد صفحاته فتكون قريباً من مئة صفحة. وقد صدر الكتاب عام ١٩٣٩ بعنوان «في بلاد العرب: الشام والحجاز والعراق»؛ ومقدمة الكتاب توحي بأنه مجموعة من المقالات التي كتبها المؤلف في السنوات السابقة خلال تنقله بين هذه البلاد، ومما جاء في هذه المقدمة: «سميت هذا الكتاب «في بلاد العرب» وكان أليق به لو دعوته «بين حربين» (يشير إلى الحربين الكونيتين: الأولى التي شهدها طفلاً، والثانية التي اندلعت في السنة التي نُشر فيها الكتاب).. على أنها ـ في الواقع ـ حروب ثلاثة؛ ذلك أني كنت بينهما في حرب مع نفسي التي حملتها على الحق، ورُضتها على اتباع الصراط المستقيم، فوجدت الحق لا يعيش في هذه الحياة إلا خاضعاً للقوة، ووجدت طرق

الحياة كلها عوجاء ملتوية؛ فمن لم يدُرْ معها مات في مكانه! وكنت في حرب مع الحياة لأن لها علوماً غير هذه العلوم التي تعلمناها في المدارس، فمن علومها علم النفاق، وعلم الكذب، وعلم الرياء، فمَن جهل علومها لم تنفعه علوم الكتب ولو أحاط بها وكان قطبَها وإمامَها!». ومع أن العنوان - كما قلت قبل قليل - يوحي بأن مقالات الكتاب مما كتبه جدي ونشره خلال تنقله بين الشام والعراق والحجاز في تلك الفترة من عمره، إلا أن القسم الذي عثرت عليه من الكتاب يحوي فقط سبعاً من المقالات التي كتبها وهو في الشام. ولعل سبب عدم إعادة طبع الكتاب أن أكثر مقالاته أودعت في الكتب التي صدرت بعد ذلك، ولا سيما كتاب «من حديث النفس».

* * *

الأدبيات

لايكاد يكون ممكناً فصل مجموعة بعينها من كتابات علي الطنطاوي لتوصف ـ دون باقي كتاباته ـ بأنها كتابات أدبية. فما دام الأدب وعاء يضع فيه المؤلف نتاجه أو أداة يصوغ بها أفكاره، فكل مايأتي به الأديب أدب، ولو كان بحثاً تاريخياً أو مقالة علمية أو خطبة حماسية. والشيخ علي الطنطاوي واحد من أعلام الأدب الكبار في هذا العصر، فكيف لا يكون كل ما كتبه من الأدب؟ بل هو أدب من أرقى الأدب وأجوده، ولكني حصرت في هذا الباب عدداً من الكتب التي لم يطبعها طابع آخر مميز (كالسيرة الذاتية أو الكتابات التاريخية) كما بينتُ آنفاً.

ولسوف يدهش الذين يقرؤون هذه الكتب جميعاً من وفرة الموضوعات وتنوع المسائل التي حفلت بها؛ ففيها أدب خالص، وفيها علم من اللغة أو الفقه أو السيرة أو التراجم، وفيها تحليلات نفسية، ودراسات اجتماعية، ومسائل تربوية، ومباحث فلسفية، وفيها دنيا ودين، وحماسة وحنين، وشدة ولين، وفيها ـ بعد ذلك كله ـ حلاوة الأسلوب ومتعة الاستطرادات، وكثيرٌ كثيرٌ من النفع والفائدة لمن أراد النفع وسعى إلى الفائدة.

وهذه الكتب ـ في جملتها ـ مجموعات من مقالات نُشرت في أزمنة وظروف متباينة (كما أشرت من قبل) وقد مضى على نشر بعضها سبعون عاماً أو ستون أو خمسون، ولكن القارئ سيعجب حين يرى أن كثيراً منها (وهي قد حُفظت بصورتها التي نشرت بها أولَ مرة؛ لم يُبدَّل فيها شيء

ولم يُزَدْ عليها شيء ولم يُنْتقص منها شيء) ما زالت جديدة في معانيها قوية في مضامينها صحيحة في أحكامها، على الرغم من طول العهد وتغير الظروف وتبدل الأحوال. أفليس هذا شاهداً آخر على النبوغ غير العادي لعلي الطنطاوي ودليلاً على ما أكرمه به الله من صدق الحدس وقوة البصيرة؟.

تعالوا نستعرض - بشيء من التفصيل - هذه الكتب ونتعرف إليها عن كثب، ولسوف تجدون فيها البيان لما وصفت والبرهان على ما ذكرت من صفات ومزايا قل اجتماعها في كتاباتِ واحدٍ فردٍ من المؤلفين والكتّاب.

* * *

فِكَر ومباحث

يضم الكتاب خمساً وعشرين مقالة نحو نصفها مما نُشر في الثلاثينيات، أي أنها من أوائل ما نشر علي الطنطاوي في الصحف. وهو يقع في ٢١٢ صفحة من القطع المعتاد (١٧×٢٤). وحتى لا يلتبس العنوان على القارئ أوضّح أن الكلمة الأولى فيه بفتح الكاف وليس بسكونها، أي أنه مجموعة من المباحث والأفكار (في المعجم: فِكَر جمع فكرة، وأفكار جمع فِكْر).

ولربما ظن القارئ ـ إذ يقرأ كتاباً كُتب أكثره من ثلاثة أرباع القرن بقلم شاب لما يبلغ الثلاثين من عمره ـ أنه سيجد كتابة ضحلة صيغت بأسلوب مبتدئ. وهنا المفاجأة؛ فأنت حين تقرأ هذه المقالات لن تظن إلا أن الذي كتبها أستاذ متمرس في أرقى الجامعات.

أقدم مقالات هذا الكتاب مقالة عنوانها «كيف تكون كاتباً»، نُشرت سنة ١٩٣٢، أي أن صاحبها كان ـ لمّا نشرها ـ في الثالثة والعشرين من عمره! قال في أولها: «هذا حديث أوجهه إلى الطلاب التجهيزيين المحرومين من دروس الإنشاء، والذين يُكلَّفون بكتابة المقالة في الموضوع الثقيل الذي لا يألفونه ولا يفهمونه من غير أن يكون أمامهم ما ينسجون على منواله ويقتفون أثره، ومن غير أن يكون تحت أيديهم من القواعد ما يعلمهم كيف يسيرون. وهم ـ في حالهم هذه ـ كالفتى يريد أن يعلمه أبوه السباحة فلا يزيد على إلقائه في الماء وأمره أن يسبح! ولكنه يموت قبل أن يتعلم السباحة، ويملُّ هؤلاء قبل أن يتعلموا الكتابة. . .».

ثم بسط ـ في باقي المقالة ـ الطريقة الصحيحة المنهجية للكتابة ومراحلها: الجمع، والاصطفاء، والترتيب والتصنيف، واختيار الأسلوب.

وقريبٌ من هذه المقالة في مضمونها ومنهجها «مقالةٌ في التحليل الأدبي» التي نُشرت أول مرة سنة ١٩٣٤ (وكان مؤلفها في الخامسة والعشرين يومذاك)، وهي طويلة في أربع عشرة صفحة، وقد نشرها مفردةً في أوائل ما نشر من كتابات. وفيها حديث عن الأدب والنقد، وعناصر التحليل الأدبي، والعوامل التي تعمل في تكوين الأديب (كالزمان والبيئة والثقافة والوراثة)، وفهم النصوص وتحليلها من ناحيتي اللفظ والمعنى. فكأنها أطروحة مختصرة للماجستير!.

وفي الكتاب أمثالٌ لهذه الأبحاث العميقة، منها: «بين العلم والأدب» و«الملَكة والثقافة» و«في النقد» و«الأدب العربي في مدارس العراق». وفيه مقالات في وصف الأدب وواقعه (أضحت اليوم ذات قيمة تاريخية فضلاً عن قيمتها العلمية والأدبية) منها «الحياة الأدبية في دمشق» و«أدب إقليمي» و«الترجمة والتأليف». كما أن فيه دراستين نفيستين؛ واحدة عن «الأبيوردي» الشاعر نشرها في مجلة الرسالة عام ١٩٣٦ (وعمره سبع وعشرون سنة)، وفيها تحليل لنفسية الشاعر وشعره ودراسة لزمانه، وقد كتبها بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته. أما الدراسة الثانية فهي وصف وتلخيص لنسخة ثمينة من كتاب مفقود هو «تعبير الرؤيا لابن قتيبة»، نُشرت عام ١٩٣٥.

وقد أُفردت بعض مقالات هذا الكتاب فنُشرت ـ لاحقاً ـ في رسائل مستقلّة، منها مقالة «من غزل الفقهاء»، وفيها كثير مما رُوي من شعر الغزل والحب عن الفقهاء والقضاة. ومنها مقالة «من شوارد الشواهد»، وهي طويلة حافلة بالأبيات التي تدور على ألسنة الناس وعلى أقلام الكتّاب، وقد عُزي كل شاهد إلى صاحبه وذُكرت مناسبته وجُلي غامضه. ومنها مقالة «القضاء في الإسلام»، وهي ـ كما كُتب في مطلعها ـ قطعة من محاضرة ألقيت عام ١٩٤٢ وضاعت تتمتها، وقد كتب جدّي هامشاً في آخرها قال فيه

إنه أضاع أوراقها وعجز عن العودة إليها وإكمالها. ولو أنه صنع أو أن المحاضرة وصلتنا كاملة لكان فيها بحث من أفضل ما أُلّف في هذا الموضوع.

ومما يثير العجب ويدعو إلى الإعجاب في هذا الكتاب مقالة «الحلقة المفقودة» التي كتبها الشيخ ونشرها عام ١٩٣٧ (أي حين كان في الثامنة والعشرين من عمره). في هذه المقالة تشخيص للدّاء واقتراح للدواء، يكاد يحسب مَن يقرؤه أنه كُتب اليوم. قال فيها: «نحن اليوم - في الشرق الإسلامي - في دور انتقال ليس له وضع ثابت ولا صفة معروفة؛ فلا نحن نعيش حياة إسلامية شرقية كما كان يعيش أجدادنا، ولا نحن نعيش حياة غربية كالتي يحياها الأوروبيون... في حياتنا جانبان مختلفان ولونان متباينان: جانب يميل إلى المحافظة، وجانب يجنح إلى التجديد، وهذان الجانبان تلقاهما في كل عهد من عهود الانتقال في التاريخ... فرجالنا المثقفون وعلماؤنا بين رجلين: رجل درس الثقافة الإسلامية ولكنه لم يفهم شيئاً من روح العصر ولا سمع بالعلم الحديث، ورجل فهم روح العصر ودرس العلم الحديث ولكنه لم يدرِ أن في الدنيا شيئاً اسمه ثقافة إسلامية. فمن أي هذين الرجلين ننتظر النفع؟ لا من هذا ولا من ذاك، ولكننا ننتظر النفع من الرجل الذي عرف الإسلام وعلومه وفهم روح العصر وألمّ بالعلم الحديث. هذه الطبقة المنتظَرة من العلماء، هذه الحلقة المفقودة، هي التي يُرجى منها أن تقوم بكل شيء... من هذه الطبقة يُنتظر النفع والفلاح، وعلى هذه الطبقة واجبات كثيرة يجمعها أصل واحد؛ هو دراسة الإسلام على أساس العلم الحديث واستخراج رأيه في مشكلات العصر وحكمه في الأحداث التي لم يعرفها الفقهاء ولم تحدث في أيامهم...»، وفي المقالة أمثلة وتفصيل. أفلا ترون أننا ما زلنا نعاني المشكلة ذاتها بعد ثلثي قرن من الزمن؟!.

* * *

صور وخواطر

يضم الكتاب ثمانياً وثلاثين مقالة نُشرت بين عامي ١٩٣٥ و١٩٦٦، أي على مدى نحوٍ من ثلاثة عقود. وهو يقع في ٢٨٦ صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

كنت في صغري أعتبرُ هذا الكتاب كتابي المفضل من مجموعة مؤلفات جدي التي أهدانيها وأنا في نحو الثالثة عشرة، ولطالما استمتعت بقراءة مقالاته وضحكت منها، وما زلت أراه جامعاً لبعضٍ من أطرف وأظرف المقالات التي كتبها، بالإضافة إلى بعضٍ من أنفعها وأكثرها شيوعاً.

فمقالة «يابنتي» طُبعت مفردة في رسالة صغيرة عشرات المرات، وربما بلغ ما طبع منها نصف مليون نسخة. أما قرينتها، «ياابني»، فليست أقلَّ منها نفعاً وفائدة وإن تكن أقل ذيوعاً وانتشاراً. والمقالتان من رسائل مسجد الجامعة، وهي رسائل كان يصدرها مسجد جامعة دمشق لمّا كان له شأن في الدعوة والإصلاح في الخمسينيات. وقد دأب المسجد على إصدار رسائل صغيرة ـ يوزعها على الناس مجاناً أو يبيعها لهم بثمن يسير ـ تهدف إلى المساهمة في الإصلاح والدعوة إلى الله بأسلوب حسن ولغة يفهمها العامة، وكان بعضها تدويناً لبعض ما كان يُلقى في المسجد من خُطَب. وقد كانت رسالة «يابنتي» أولى هذه الرسائل، نُشرت أول مرة عام ١٩٥٦ ثم أُعيد نشرها مرات ضمن رسائل المسجد وعشرات المرات رسالةً مفردةً من بعد. وقد أعاد الأستاذ زهير الشاويش ـ من قريب ـ

إصدار مجموعة «رسائل مسجد الجامعة» في ثلاثة أجزاء عظيمة النفع جليلة الفائدة (تحدث فيها عن المسجد ورسائله حديث المطّلع الخبير) وأبقى على رسالة «يابنتي» متصدرة للرسائل لأنها أولها صدوراً.

ومما أُفرد في رسائل مستقلة من مقالات هذا الكتاب مقالة «حلم في نجد»؛ وهي مقالة فريدة فيما جمعتْه مما قيل في نجد من الشعر وما أُنشد فيها من القصائد، فكأنها ديوانٌ نجدي موجز تتداخل فيه المقاطع الشعرية والتعليقات الأدبية والشروح التاريخية.

وفي الكتاب ـ بعدُ ـ عدد من المقالات الطريفة التي أكاد أجزم أن أحداً لا يملك أن يقرأها بغير أن يقهقه ضاحكاً منها، فإن كنتَ قارئها ـ لا بد ـ فاقرأها خالياً حتى لا يعجب الناس من تفاعلك معها. فمن ذلك مجموعة مقالات الأعرابي: «أعرابي في حمام» و«أعرابي في سينما» و«الأعرابي والشعر». ومن هذه المقالات الطريفة «ديوان الأصمعي»؛ وهي من أكثر المقالات ابتكاراً وطرافة، وقد بلغ من دقة حبكتها أن ظنها أحد الأساتذة حقيقة وبنى عليها فصلاً لغوياً نشره في بعض المجلات! (كما ورد في حاشيةٍ على المقالة في طبعةٍ حديثة من الكتاب). ومنها مقالة «مجانين»؛ وفيها مجموعة من أخبار «عقلاء المجانين» من مثل خبر الجاحظ الذي «نسي كنيته وطفق يسأل عنها حتى جاءه ابن حلال بالبشارة بلقياها فقال له: أنت أبو عثمان. فهل كان الجاحظ ـ عبقري الأدب، ولسان العرب ـ مجنوناً؟!». وكثير من مثل هذه القصص الطريفة أترك لكم قراءتها في موضعها. على أنّ في المقالة موعظة عظيمة ونصيحة صادقة: «فإذا كان في الدنيا جنون عبقرية وجنون مارستان، فإن جنون الهوى هو جنون الإجرام، لاسيما إذا كان على الطريقة الفرنسية. فيا أيها الشباب الصغار، إذا لم يكن بد من الجنون، فلنجنّ بالمعالي والمكارم، أو لنسكن المارستان!». أما مقالة «شهيد العيد» فأراها من أعجب مقالات الكتاب، وقد نشرتُها في مجلة أصدرتُها لمّا كنت طالباً في المدرسة

الثانوية فعجب منها مَن قرأها، ولن أتحدث عنها بل أدع كشفها لمن لم يعرفها من قبل من القرّاء.

وفي الكتاب مقالات من الأدب المحض، منها «مرثية غراي» التي قرأها عليه ـ كما ذكر في أولها ـ صديقه حيدر الركابي فصاغها بالعربية، و«القبر التائه» و«كتاب تعزية» و«وقفة على طلل».

وفيه مقالات فلسفية منها: «السعادة» و«بيني وبين نفسي» و«بين البهائم والوحوش» و«لا أؤمن بالإنسان» و«رقم مكسور». ومقالات اجتماعية منها: «تسعة قروش» و«اعرف نفسك» و«في الترام» و«في الحب».

وأخيراً، إليكم مقطعاً من مقالة «أنا والإذاعة»، وقد أُذيعت من إذاعة دمشق عام ١٩٤٢: «. . . وإذا هم يدخلونني من دهليز إلى دهليز، حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة، فأشاروا إلى باب وقالوا: «هُسْ»، إياك أن تتكلم، أو تعطس، أو تسعل، أو تخبط برجلك، أو تدق بيدك، أو تُخَشْخِش بأوراقك! قلت: فكيف إذن أتحدث؟ قالوا: إذا جاء دورك تكلمت. ورأيت مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد وقد وقف أمامها شاب يصوّت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه وبعضها من صدره وبعضها من بطنه، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات، فأجهدت ذهني خمس دقائق كاملات لأعرف ماذا يصنع هذا الرجل: أيغني أم يخطب، أم هو مصروع معتوه يخلِّط، فلم أهتدِ إلى حقيقته. ثم سكت وتقدم من العلبة أحد موظفي المحطة فقال: لقد انتهت الحفلة الموسيقية. فقلت: إذن هي حفلة موسيقية؟ سبحان القادر على كل شيء! وأقبل الموظف عليّ فأشار بيده إلى حيث كان يقف الشاب صاحب الأصوات المخنثة، فقلت: ماذا؟ أأعمل أنا أيضاً حفلة موسيقية؟ قالوا: هس. . هس! وأدار مفتاحاً كمفتاح الكهرباء وجعل يكلمني بلسانه بعد أن كان يتكلم بيديه

وقال: تفضل ياأستاذ، اقعد وتكلم. قلت: أتكلم مع مَن؟ أين المستمعون؟ قال: تكلم هنا.. وأشار إلى العلبة. قلت في نفسي: أعوذ بالله من شر هذه الغرفة! لقد حسبتها سجناً مغلقاً فإذا هي بيمارستان! أأكلم علبة؟ أمجنون أنا؟ وبحثت عن مهرب فلم أجد، وفتشت عن نصير فلم ألقَه، فاستسلمت للمقادير وقعدت، وشرعت أكلم العلبة كالمجانين!».

* * *

مع النّاس

يضم هذا الكتاب أربعين مقالة، بعضها من أوائل ما نشر علي الطنطاوي في الصحف في مطلع الثلاثينيات، ولكن أكثرها مما نُشر في أواخر الخمسينيات. وهو يقع في ٢٢٠ صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

تهتم معظم مقالات الكتاب ـ كما يوحي اسمه ـ بقضايا الناس وهمومهم ومشكلاتهم، فهي مقالات اجتماعية واقعية. ولما كان كثير منها مما أُذيع من إذاعة دمشق ـ حين كان للشيخ حديث أسبوعي يُذاع منها كل يوم جمعة ـ فإنها قد جاءت وصفاً لما في المجتمع من مشكلات وسعياً إلى المعالجة والإصلاح.

من مشكلاتنا المزمنة ـ على سبيل المثال ـ الاستهتار بالوقت وإخلاف المواعيد. ولعلكم تذكرون أنني قلت سابقاً إني ما رأيت جدي أخلف موعداً قط، وكان ذلك من أكثر ما يؤذيه من الناس. ولأنه أدرك مدى انتشار هذه العلة في المجتمع وتمكنها من أفراده، فقد خصّها بعدد من أحاديثه ومقالاته التي جمعها هذا الكتاب ومنها «لصوص الوقت» و«لا تؤجل» و«الوعد الشرقي» التي ساق فيها قصة إخلاف موعدٍ ثم عقب عليها بقوله: «أليس عجيباً أن صار اسم «الوعد الشرقي» عَلَماً على الوعود الكاذبة، واسم «الوعد الغربي» عَلَماً على الوعد الصادق؟ مَن علّم الغربيين هذه الفضائل إلا نحن؟ . أوَلم يجعل الإسلام إخلاف الوعد من علامات النفاق، وجعل المخلف ثلث منافق؟ فكيف نرى ـ بعد هذا ـ كثيراً من المسلمين لا يكادون يفون بموعد ولا يبالون بمن يخلف لهم وعداً، حتى صار التقيد بالوعد والحرص عليه نادرة يتحدث بها

الناس؟ . . . فمتى يجيء اليوم الذي نتكلم فيه كلام الشرف، ونعد وعد الصدق؟ . . . فابدؤوا بإصلاح الأخلاق؛ فإنها أول الطريق».

أما مقالة «شغّلوا الطلاب في عطلة الصيف» فليست دعوة لاستثمار الوقت الضائع لأكثر الطلاب في عطلة الصيف فقط، بل هي أيضاً دعوة لتقدير العمل واحترامه وتعويد الطلاب عليه. لقد كان العمل اليدوي (وأحسبه ما يزال) نقصاً في نظر كثير من الناس الذين يصرفون عنه أبناءهم وينظرون إلى من يقوم به بعين الازدراء. لذلك جاء في تلك المقالة (وهي مما أذيع من أحاديث عام ١٩٥٩): «إن العمل ليس عيباً، وفي أميركا يشتغل الطلاب ـ حتى الأغنياء منهم ـ في العطلة الصيفية بالخدمة في المطاعم والعمل في المصانع، فلماذا يبقى شبابنا مدة العطل (وهي ربع السنة أو ثلثها) بلا عمل فيتعودوا الكسل والبطالة أو يقرؤوا روايات أرسين لوبين أو يروا الأفلام الخبيثة؟ لماذا نقتبس من الغرب الضار ولا نقتبس النافع؟».

ثم نراه يخص الطلاب بالاهتمام مرة أخرى، ولكن بدراستهم وامتحاناتهم هذه المرة، وذلك في مقالة «إلى الطلاب» التي يعلّمهم فيها كيف يدرسون. فقد زار صديقاً له مساءً فوجد ابنه يسهر كل يوم إلى الساعة الثانية يستعد للامتحان، فقال: «أعوذ بالله، هذا أقصر طريق للوصول إلى السقوط في الامتحان. . . إن أول نصيحة أسديها لمن يدخل الامتحان من الطلاب والطالبات أن يحسن الغذاء وأن ينام ثماني ساعات». تلك الأولى من سبع نصائح، أما بقيتها فعودوا إلى الكتاب لقراءتها فيه.

وفي الكتاب دعوة إلى الخير والإنفاق في مقالة «أحسن كما أحسن الله إليك»، وإلى مثل ذلك وإلى الخلق الحسن في: «رمضان» و«حديث العيد».

وفي مقالة «كل شيء للناس» أسلوب طريف في معالجة مشكلة عظيمة تنغص على الناس ـ لاسيما الرجال ـ حياتهم؛ وهي إقامة تصرفاتنا وأعمالنا على ما يحقق رضى الناس واعتبارُ هذا الرضى غايةً نبذل الكثير

في سبيلها ونجهد في الوصول إليها. اقرؤوا هذه المقالة تجدوا فيها وصفاً طريفاً لهذه المشكلة، وفي آخرها: «الناس، دائماً الناس. فياأيها الناس، متى نعيش لأنفسنا؟ ومتى نستطيع أن نقف عند حدِّ الشرع وحدِّ العقل؟ ومتى يخرج فينا العقلاء الأقوياء الذين يكسرون هذه القيود؟ أمّا أنا فوالله ما أبالي هذا كله ولا أدخلته يوماً في حسابي، ولكن أعظُ من شاء أن يتعظ... ولا تخشوا قول الناس ما دمتم لم ترتكبوا محرماً ولا ممنوعاً شرعياً. وهل عند الناس إلا أن يقولوا؟ لقد قالوا عن محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء إنه مجنون، وقالوا ساحر، وقالوا كذاب. فليقولوا عنكم ما شاؤوا، ولا تبالوا بسخط الناس إن كنتم قد أرضيتم رب الناس».

أما القضية التي شغلت أكبر مساحة من الكتاب فهي الدعوة إلى الفضيلة ومعالجةُ مشكلات الشباب والشابات. فمن ذلك إنذار وإعذار، كما في: «هذا نذير للناس» و«إبراهيم هنانو قال لي» ـ التي نشرها جدي في مجلة الرسالة عام ١٩٤٦ ـ وفي أولها: «هذا إنذار أستحلفُ كل قارئ من قراء «الرسالة» في الشام أن يحدث به وينشره ثم يحفظه، فإنه سيجيء يوم تضطره أحداثه أن يعود إليه فيقول: ياليته قد نفعنا هذا الإنذار، ياليتنا... ويومئذٍ لا تنفع شيئاً «ليت»؛ إنها لا ترد ما ذهب، ولا ترجع ما فات! وهذا إعذار إلى الله، ثم إلى كُتَّاب التاريخ؛ لئلاّ يقولوا إنها لم ترتفع في دمشق صيحة إنكار لهذا المنكر ولم يعلُ فيها صوتٌ ناطق بحق...»[1]. وبعد هذا الإنذار يأتي تشخيصٌ وعلاجٌ في عدد كبير من المقالات: «مشكلة الزواج»، و«أسباب المشكلة»، و«الحب والزواج»، و«في الزواج»، و«السن المناسبة للزواج»، و«هذا هو الدواء».

* * *

---

(١) في الذكريات: (٥/ ٢٣٤ وما بعدها) حديث عن هذه المقالة وما أثارته من تعليقات، وحديث عن المقالة الأخرى «دفاع عن الفضيلة» التي خاف الزيات على كاتبها من تبعاتها فمحا اسمه من رأسها!.

هُتاف المجد

في هذا الكتاب خمس وثلاثون مقالة، منها ما نُشر أصلاً مقالات في الصحف والمجلات، ومنها ما كان أحاديث أُذيعت في الإذاعات أو خطباً أُلقيت في الاحتفالات والمهرجانات، وهي تعود إلى حقبة طويلة تمتد عبر الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات. والكتاب يقع في ٢٢٨ صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

هذا الكتاب ديوان من دواوين الحماسة، تتجلى فيه الروح الوطنية لعلي الطنطاوي، وتبدو فيه عاطفته الدينية في أظهر صورها وأعنف حالاتها. إنه يشن فيه حرباً شرسة ويحمل حملة عنيفة على أعداء الأمة والمستعمرين؛ على فرنسا في الشام وفي الجزائر، وعلى إنكلترا في مصر وفي فلسطين وفي اليمن، وعلى إيطاليا في ليبيا، وعلى اليهود فوق كل أرض وتحت كل سماء!.

لقد كانت قضايا الأمة شغلاً شاغلاً للشيخ علي الطنطاوي على امتداد حياته كلها، منذ أول خطبة ألقاها في حياته ـ وهو طالب في المدرسة الابتدائية وعمره أربعة عشر عاماً وهاجم فيها الفرنسيين يوم كان الفرنسيون يحكمون الشام[١] ـ إلى آخر أيام حياته. أفتعلمون أن آخر ما سجله من أحاديث وأن آخر كلمة عامة له ـ في الشهر الذي سبق وفاته ـ كانت انتصاراً لمسلمي كوسوفا المستضعفين واستصراخاً للأمة لنجدتهم

(١) وتفصيل خبرها في الذكريات: ١/ ٩٨.

ونصرتهم؟ اللهمَّ ارحمه واعفُ عنه وافسح له في قبره ونوِّر له فيه قدرَ ما جاهد في سبيلك واهتم بعبادك وسعى لنصرة دينك، اللهمَّ آمين.

وهو يتدفق ـ في هذه الخطب والمقالات ـ حماسة ويلتهب انفعالاً، حتى ليكاد القارئ يقفز عن كرسيّه أو يرمي من يده الكتاب وينطلق إلى ساحات الوغى وميادين الجهاد. اقرؤوا هذا المقطع من مقالة «خطبة الحرب» وتخيلوه وهو يلقيه بصوته القوي الهادر (الذي كان يُسمِع الجامع الأموي كله بلا مكبر): «إنها معركة الخير والشر قد عادت، ونحن أبداً حملة لواء الخير في الدنيا، ونحن حماة الحق في الأرض. ما أضعنا الأمانة التي وضعها على عواتقنا خمسة ملايين من شهدائنا نثرناهم في الأرض طوال القرون. هذا تاريخنا، ما سمعت أذن الزمان تاريخاً أحفل منه بالمفاخر، وأغنى بالنصر، وأملأ بالأمجاد، ووالله ـ الذي جعل العزة للمؤمنين وجعل الذلة لليهود ـ لنكتُبنَّ هذا التاريخ مرة ثانية، ولنتلونَّ على الدنيا سفْر مجدٍ يُنسي ما كتب الجدود، ولنجعلنَّ أساسه ضرباً لا تثبت له شوامخ الصمِّ من أجلاد الكرمل ولا هام المردة من شياطين الجحيم، فكيف برؤوس اللصوص الغاصبين؟ ولنحاربنَّ بالنار والحديد والبارود، وبالسيوف والخناجر والعصيّ، فإن لم نجد يوماً السلاحَ حاربنا بأيدينا. ولنسوقنَّ إلى الحرب شباباً أنضر من الزهر، وأبهى من الضحى، وأثبت من الجبل، وأمضى من العاصفة، فإن لم نجد يوماً شباباً سُقنا إليها الشيوخ والأطفال والنساء. فياأيها العرب في كل أرض، ياأيها المسلمون تحت كل نجم، ياأيها الرجال وياأيتها النساء، لقد أزفت ساعة المعركة الفاصلة، فليحمل كلٌّ منكم نصيبه منها، واعلموا أن الظفر لكم. ياأيها المجاهدون في عُمان والجزائر والقرى الأمامية، وياأيها العاملون على تحطيم آخر صنم للاستعمار في بلاد العرب، اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون».

أما فلسطين فلا أحسب أن أحداً ـ من أهلها أو من سواهم ـ اهتم بها

وسعى لها وجاهد في سبيلها بقلمه ولسانه وجنانة كما فعل جدي. لقد ساح - في سبيلها - في ربوع الدنيا إلى آخر المعمور من الأرض، ولم يكد يدع فرصة من كتابة أو إذاعة أو خطابة إلا تحدث عنها. وها هو ذا يقول في مقالة في هذا الكتاب عنوانها: «لا تنسوا فلسطين» أذيعت سنة ١٩٥٥: «يا أيها السامعون، أمامي الآن عدد من جريدة ألف باء منذ نحو ربع قرن، فيه مقالة لي أنبّه فيها وأوقظ وأسأل العرب كيف يستمرئون لذيذ الطعام، وكيف يستسيغون عذْب الشراب، وكيف ينامون على لين الفراش، وفلسطين على فم البركان، وفلسطين على شفير الضياع. وهأنذا اليوم أعود فأسأل العرب: ياأيها العرب، إني لا أخشى شيئاً كما أخشى أن تنسوا قضية فلسطين. . . لقد وقفنا في «قبية» على أنقاض المدرسة التي ضربها اليهود بالقنابل من سنتين، فمات المعلم والتلاميذ. ونبشنا الأنقاض، ورأينا هيكل طفل صغير يشير بيدٍ من عظم؛ يفتش في الأرض عن عربي من الثمانين مليوناً، عن مسلم من الخمسمئة مليون، ينقذه من هذه الحفنة من شذاذ الآفاق فلم يجد!».

وفي مقالة «القول للسيفِ، ليس القولُ للقلمِ» التي نشرها بعد قرار التقسيم عام ١٩٤٧ يقول: «لو كان للكلام الآن مكانٌ لقلنا فبذَذْنا القائلين، ولبعثناها في الأرض مقالات تشتعل حروفها ناراً، وتتفجر كلماتها قنابل، ويكون منها براكين تنفث الحمم. ولكن عهد الكلام قد انقضى، وستسمع الدنيا غداً عنا كما سمعت منا، أحاديث تشيب ناصية الدهر، وتحرق فؤاد الصخر، وتحيِّر من هولها ذوي الأحلام. . . ونحن نعترف بأننا لا نملك مثل أموال اليهود، ولا مثل أسلحة الأميركيين، ولكنا نملك ثمانين مليون روح من ورائها أربعمئة وعشرون مليون روح، نريد أن نزهقها كلها أو ندفع عنا هذا الضيم الذي تريدنا عليه أميركا وروسيا. فهل عندكم من القنابل الذرية ما يكفي لقتل خمسمئة مليون؟. . . ولن تدوم للصهيونيين دولة في فلسطين ما دام المسلمون في الأرض والله في السماء».

* * *

مقالات في كلمات

كما هو واضح من عنوان الكتـاب، فإن مقالاتـه صغيرة موجزة، ولذلك وصفها كاتبها بأنها «في كلمات». وقد ضم الكتاب من هذه المقالات مئة وثلاث عشرة مقالة، أكثرها لا يجاوز الصفحتين. وهو يقع في (٢٥٤) صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

ومبدأ هذه المقالات ـ كما جاء في مقدمة المؤلف للكتاب ـ أن صاحب جريدة «النصر»، وديع الصيداوي، طلب إليه عام ١٩٤٩ أن يكتب عنده زاوية يوميـة بعنوان «كل يوم كلمة صغيرة»، فمشى بها زماناً. ثم انتقل إلى جريدة «الأيام» عند نصوح بابيل، واستمر بها سنين فتجمَّع لديه منها مئات ومئات.

قال في المقدمة التي كتبها للطبعة الجديدة من الكتاب عام ١٩٩٠: «وجـاءت (أي هذه المقالات) بأسـلوب جديـد، أقـرؤه الآن فأرتضيـه ـ ولسـت أرتضي كل ما كنت كتبت ـ ولكن موضوعاتها يوميـة يمـوت الاهتمام بها بموت يومها. وقد استمرت سنين فتجمَّع لديّ منها مئات ومئات. فلما ألَّف الدكتور مصطفى البارودي وإخوانٌ له من الشباب لجنةً للتأليف والنشر دفعتُها إليهم ليختاروا منها ما يجمعونه في الكتاب الذي طلبوه مني، واختاروا طائفةً منها في كتاب صغير دعوه «كلمات». ثم نشرتُ مجموعة منها أكبر في كتاب «مقالات في كلمات»، وبقي عندي منها الكثير الكثير». وفي مقدمة الطبعة الأولى التي كُتبت عام ١٩٥٩:

«كنت في سنة ١٩٤٩ أكتب في جريدة «النصر» أولاً ثم في «الأيام» آخراً كلمات بعنوان: «كل يوم كلمة صغيرة». ولبثت على ذلك سنوات اجتمع لديّ فيها ركام منها، منه ما لا يُقرأ إلا في يومه، وقد أهملته واطَّرحته، ومنه ما يُقرأ في كل الأوقات، وقد اخترت منه هذه الكلمات».

والمقالات متنوعة في موضوعاتها واهتماماتها لأنها كُتبت في أزمنة متباينة، فكثيرٌ منها يعالج مشكلات اجتماعية مثل: «نظام» و«الزواج بالأجنبيات» و«شحاذون» و«كوّاء»، أو يدافع عن الفقراء والضعفاء مثل: «أجير الخبّاز» و«طفلان» و«إلى الأغنياء» و«أكرموا الفلاحين». ومنها مقالات تهتم بالمشكلة الأخلاقية والدعوة إلى الفضيلة مثل: «مشكلة وجيه» و«هكذا قال زرادشت» و«بائعة اليانصيب» و«آلآن يا بنت؟». وفي الكتاب مقالات تربوية منها: «أدب الأطفال» و«سهر الأولاد» و«يبيع الجرائد». ومقالات في مشكلات الأزواج والأسرة منها «هكذا فاصنعوا لهنّ» و«طلاق» و«الجهاز» و«علاج الخصام». ومقالات وطنية منها «أبطالٌ صغار» و«منجم ذهب» و«نعم، لقد هُزمنا». ومقالات تاريخية منها «موقف عالم» و«طريق النصر» و«خبر من السيرة». ومقالات فلسفية منها «الحق والقوة» و«لا أؤمن بالإنسان» و«الثبات». ومقالات ثقافية منها «الثقافة في خطر» و«دفاع عن العربية» و«المذهب الرمزي كما أفهمه».

وفي كثير من هذه المقالات طرافة ـ مع ما أُنشئت له من هدف اجتماعي أو سواه ـ كما ترون في مقالة «حمار يسوق سيارة»: «رأيت مرة دباً يركب الدراجة على المسرح، وسمعت عن كلاب تحمل السِّلال وتغدو على السوق فتشتري الفاكهة، وفي كتاب كليلة ودمنة أخبار من ذلك، ولكن أعجب هذه الأخبار وأبعدها في الإغراب أن يسوق حمار سيارة! وما كنت لأصدِّق ذلك لولا أن رأيته أمس بعيني، وكاد يدعسني. لا، لا تظنوا أني أمزح أو أتخيل، إني لا أصف إلا ما جرى... كان حماراً شاباً، عليه مظاهر الدلال، وكان منتفخاً مغروراً قد رفع أذنيه من

الكِبْر ولوى ذَنَبه من الغرور. وكيف لا يغتر الحمار إذا رأى نفسه مالك السيارة البويك صنع ١٩٥١[١] وبنو الشيخ آدم ـ رحمه الله ـ يمشون على الأرض؟ ولكن الحمار حمار ولو ساق السيارة، لذلك ترك يمين الطريق وأخذ شماله، وجاءت سيارة من أمام تمشي على الطريق السوي، فاضطرب الحمار السائق وصار يكبس أزرار السيارة بقوائمه الأربع، فصعدت الرصيف، وصدمت الرجل، ثم دخلت دكان الخضري. ولم يستحِ ولم يعتذر كمن يعتذر مَن في نفسه أدب، إنما نزل من السيارة وجعل ينهق في وجه الخضري ويسبُّه باللسان الحماري لأنه لم يترك شوارع البلد كلها ويفتح دكانه في هذا الطريق إلا ليصدم السيارة. هذا هو المشهد الذي شهدت، وشهده معي عشرات من الناس. وأنا ـ مع تقديري لهذه البراعة في تدريب الحيوان على أعمال الإنسان ـ أرجو ألّا تأذن الحكومة لحمارٍ بعد اليوم أن يسوق سيارة خاصة على الطرقات العامة... ولو غضب من ذلك حضرات السادة الحمير!».

أما آخر مقالة في الكتاب فهي: «وداع» فيه: «يا قرّائي، السلام عليكم. سلام وداع، لا سلام لقاء. وداعاً يا قرّاء، وشكراً لكم على ما أفضلتم عليّ... فلقد عشت عمري أترجم للناس حديث السواقي في أذن الزمان، أرسم صور المجد وتهاويل الأماني... فأنزلتموني من سماء الأحلام إلى أرض الواقع، وغمستم هذا القلم في مشاكل[٢] الطحّانة والخبّازة واللصوص والأشرار وأوحال الطريق، بعدما عاش دهراً لا يعرف

(١) أي سنة كتابة هذه المقالة.

(٢) سمّى جدّي حديثه الذي أذاعه من إذاعة المملكة لبضع وثلاثين سنة «مسائل ومشاكل»، واستمرّ على هذا الاسم سنين، ثم أعلن للناس أنه يستدرك مصحّحاً أن «مشكلة» لا تُجمع على «مشاكل» بل على «مشكلات» وعدّل اسم البرنامج إلى «مسائل ومشكلات». ولكني أبقيت هنا النص كما ورد في أصل الكتاب.

إلا مشاكل القلوب. . . وأرخصتم في سوق الصحافة أسلوبي، فاختفى ذاك البريق من بياني، وجفّ الماء الذي كان يتسلسل على لساني. أفليس لي ـ بعد هذا كله ـ أن أستريح؟ بلى، وسيتنفس أقوامٌ الصعداء على أن خلا مكاني، وستفرح قلوب كنت عليها غماً، وتنام عيون، كنت أحرمها لذيذ المنام. والسلام عليكم يا قرائي، ولا «كلمة صغيرة» بعد اليوم!».

* * *

قصص من الحياة

في الكتاب سبع وعشرون قصة قصيرة، كُتب أكثرها في الفترة الممتدة بين أواسط الثلاثينيات وأواسط الأربعينيات، وأقدم ما فيه قصتان تعودان إلى عام ١٩٣١. وهو يقع في (٢٢٠) صفحة من القطع المعتاد (١٧×٢٤).

قلت في أول هذا القسم من الكتاب إن علي الطنطاوي قد كتب في سائر فنون الأدب، ومن ذلك القصة القصيرة والمسرحية. فأما المسرحية فلن يمر بنا ـ في استعراضنا هنا لما كتبه ـ غير نموذج واحد لها، وإن تكن له فيها كتابات أخرى سأشير إليها في موضعها. وأما القصة القصيرة ففنٌّ كتب فيه في أيام كتابته القديمة، وقد تركه منذ أربعين عاماً فلم يعد إليه إلا نادراً. لماذا؟ لست أدري! وأكثر ما كتب من أقاصيص نجدها في هذا الكتاب والكتاب الآخر؛ «قصص من التاريخ». على أنني سأستبق الأحداث فأشير إلى أن كتاباً ثالثاً عنوانه «وقائع مثل القصص» سيظهر عما قريب ـ إن شاء الله ـ ليضم مجموعة من الأقاصيص التي ظهرت في الماضي في بعض الصحف أو أُذيعت من بعض الإذاعات ولكنها لم تُجمع أو تُنشر في كتاب واحد بعد ذلك أبداً.

وهذه قصصٌ من الحياة، سماها كذلك لأن الحياة ألَّفتها، وهل تؤلف الحياة قصصاً؟ نعم: «إن الحياة تؤلف قصصاً يعجز أبرع أهل الفن عن توهُّم مثلها، ولكنها لا تذيع «مؤلفاتها» ولا تعلن عنها، فتبقى

«مخطوطة» مخبوءة لا يصل إليها ولا يقرؤها إلا رجل حديد البصر، طويل اليد، ذو جَلَدٍ على البحث وصبرٍ على التنقيب. ولست ذلك الرجل، ولا أنا من عشّاق المخطوطات وروّاد المباحث، ولكن الأيام ألقت هذه القصة في طريقي فوجدتها مطويّةً في سجلات محكمة من المحاكم، مقطَّعة الأوصال، مفرَّقة الأجزاء، فألصقتُ أوصالها وجمعتُ أجزاءها، ونشرتها في «الرسالة» وما لي فيها إلا الرواية[1].

ومما يلاحَظ في هذه الأقاصيص أن أكثرها قصير؛ فهي لا تكاد تتجاوز الصفحات العشر طولاً، وكثير منها في حدود الخمس أو الست الصفحات، باستثناء واحدة تُجاوز الثلاثين.

هذا من حيث الشكل، أما من حيث المحتوى فيجمع أكثرَها أنها تعالج مشكلات اجتماعية أو أخلاقية. ففي أول قصص الكتاب «اليتيمان»، تصوير مؤثر لواحدة من المشكلات المنتشرة بين الناس: الزوجة الثانية التي تظلم أبناء زوجها ـ من زوجته السابقة ـ وتنسى أن في الكون عدلاً وبعد الموت حساباً وفي الآخرة جنة للمحسنين وناراً للظالمين. وفي قصة «الكأس الأولى» نتعرف إلى عبد المؤمن أفندي، وهو شرطي بسيط يعمل في مخفر في قرية صغيرة قرب الشام، راتبه الشهري مئة ليرة لا تكاد تكفيه وأسرتَه الصغيرة لضرورات الحياة، فضلاً عن كمالياتها. ثم تأتيه الفرصة ليحصل على راتب مئة شهر في ضربة واحدة، ولكنها كسبٌ محرَّم وهو لم يمدَّ إلى الحرام يداً طَوال أربعين عاماً، فماذا سيفعل الآن؟.

وفي: «طبق الأصل» و«من صميم الحياة» و«في حديقة الأزبكية» دعوة ظاهرة إلى الفضيلة وتحذير من أسباب الرذيلة والفاحشة يبلغ أوجَهُ في قصة «الخادمة»: «هكذا كان يفكر الأبوان المحترمان. وضُربا بالعمى

(١) هذه الكلمات قدَّم بها المؤلف لقصة «طبق الأصل»، ص٦٨ من الكتاب.

عن حقيقةٍ لا تخفى على عاقل؛ هي أن الرجل والمرأة حيثما التقيا وكيفما اجتمعا: معلماً وتلميذة، وطبيباً وممرضة، ومديراً وسكرتيرة، وشيخاً ومريدة، فإنهما يبقيان رجلاً وامرأة. لذلك قال النبي ﷺ: «ما خلا رجلٌ بامرأةٍ ـ هكذا؛ على الإطلاق ـ إلا كان الشيطان ثالثهما»».

وأما «قصة أب» فجرس إنذار يقرعه علي الطنطاوي عالياً يكاد يصمّ الآذان تنبيهاً لمن يدلِّل أولاده ـ من الآباء والأمهات ـ دلالاً يجاوز الحد فيقود إلى أسوأ العواقب في الدنيا والآخرة.

وفي الكتاب «لوحات» اجتماعية تاريخية هي أقرب إلى التراث الشعبي فيما تقدمه من أوصاف وصور، منها «في شارع ناظم باشا» و«نهاية الشيخ» و«العجوزان». وفيه قصة من الأدب الرمزي هي «قصة بردى» التي تحكي سيرة حياة النهر بأسلوب روائي رمزي كما تُحكى سيرة رجل من الناس.

وأخيراً، ففي الكتاب قصتان من الأدب الوطني الصارخ الذي يستنهض الهمم وينفخ الحياة في الأموات: «جبل النار» و«بنات العرب في إسرائيل». وهذه الأخيرة كان يمكن أن تكون صرخةَ «وامعتصماه» جديدةً لو كان في الأمة رجالٌ يسمعون، ولكنها صرخةٌ ضاعت في وادٍ مقفر وصيحةٌ تلاشت في أرضٍ فضاء: «قالت: وجعلتُ أعدو حافية ـ وقد سقط الحذاء من رجلي ـ على التراب والشوك حتى لحقوا بي. . . لقد أراقت دم عفافها لأن رجال قومها لم يريقوا دماء أجسادهم دفاعاً عن الأرض والعرض، وخدَّروها بهذه الإبرة كما خدروا زعماء العرب بالوعود وبالخدع وبحطامٍ من الدنيا قليل».

وبعد، إنها قصص من الحياة. ولأنها كذلك، ولأنها تسعى إلى تقويم ما في الحياة من عيوب وعلاج ما فيها من أمراض، فقد اضطر مؤلفها أن يصف العيب أو يجهر بتشخيص «المرض» في بعض المواقف،

وهو أمرٌ سـاءه فاعتذر منه في مقدمـة الطبعة الأولى من الكتاب، وفيها يخبرنا أنه تردد طويلاً قبل أن يأذن بنشر هذه القصص، ثم علَّل دافعه إلى نشرها في مقدمة الطبعة الأخيرة التي جاء فيها: «مَنْ نظر في المرآة فرأى وجهه مصفرّاً ولونه حائلاً فلا يَلُم المرآة على اصفرار وجهه وتحوُّل حاله. والأديب مرآة الأمة ولسانها الذي يبدي المكنون في أفئدة أهلها، ولكل أمة مزايا وعيوب، فمَن نبَّه إلى عيبٍ فيها استحق الشكر لا العتب والغضب».

* * *

صيد الخاطر لابن الجوزي

تحقيق وتعليق

يقع هذا الكتاب في نحو (٤٥٠) صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤)، منها سبعون صفحة للمقدمة والفهارس. وقد طُبع أول مرة بهذا التحقيق عام ١٩٦٠.

«صيد الخاطر» كتاب قديم لمؤلف معروف، هو الإمام ابن الجوزي الذي عاش في بغداد في القرن الهجري السادس ومات فيها عام ٥٩٧. وقد كان أديباً فقيهاً واعظاً مفسِّراً محدِّثاً، حُبِّب إليه العلم من طفولته وحفظ القرآن صغيراً، وكان يتصف بقوة البديهة وحضور الذهن والأجوبة النادرة مع كثرة الحفظ وسعة الرواية، وكانت له منزلة في الوعظ لم يُدانِه فيها أحد، وَعَظَ وسنُّه عشر سنين إلى أن مات، وزعموا أن بعض مجالس وعظِهِ حضرها ثلاثمئة ألف إنسان. ولما مات ـ وكان ذلك في رمضان ـ اجتمع على جنازته أهل بغداد وأُغلقت الأسواق وأفطر بعض من حضر لشدَّة الحرّ وكثرة الزحام، وخرجت جنازته سَحَراً والناس يتدافعون يحملونها على رؤوسهم، فما وصلت إلى المدفن إلا وقت صلاة الجمعة. وقد كان كثيرَ التأليف حتى أحصوا من كتبه أكثر من مئتين وخمسين مصنَّفاً، كثيرٌ منها يقع في المجلدات الطوال.

وقد خبّرنا جدي ـ في مقدمته للكتاب ـ كيف تعرَّف إلى هذا الكتاب فقال: «كنت أعمل في بغداد نحو سنة ١٩٣٦ أدرِّس العلوم الشرعية في الأعظمية وأقيم فيها منفرداً، فكنت ـ إذا طال عليّ الليل وأوحشت الوحدة

ـ أفزع إلى مكتبة الكلية، أستعير منها الكتاب بعد الكتاب. . . فكان فيما استعرت منها كتاب بلغ من إعجابي به أن استبقيته عندي إلى أن فارقت الكلية، أقرأ فيه كل يوم فلا أملُّ القراءة فيه، ولا تخلو نظرة فيه من موعظة أتَّعظ بها، أو فائدة أستفيدها، أو طرفة آنس بها. وفيه ـ فوق ذلك ـ تحليل للنفوس وفيه وصف للمجتمع، في أسلوب مبتكر وطريقة في التصنيف لا أعرفها لأحد من المصنفين. وكان الكتاب: «صيد الخاطر» لابن الجوزي».

وهو يبدي إعجابه بالاسم الذي سمى به المؤلف كتابه: «وفي هذا الاسم توفيقٌ عجيب؛ ذلك أن الخواطر لا تفتأ تمرُّ على الذهن كأنها الطيور التي تجوز سماء الحقل، تراها لحظة ثم تفتقدها، فكأنك ما رأيتها، فإذا أنت اصطدتها وقيدتها ملكتها أبداً. لذلك جعل المؤلف هذا الكتاب «قيداً لصيد الخواطر»، فكان الاسم نفسه نفحةً من نفحات العبقرية».

ثم هو يخبرنا كيف انتهى به هذا الإعجاب بالكتاب إلى نشره: «فلما عدت إلى دمشق فتشت عن نسخة من الكتاب (وكانت نسخه نادرة في تلك الأيام) حتى وجدتها، فجعلت أنظر فيه دائماً، ورآه أخي ناجي (القاضي الشرعي)[1] فأولع به ولازم مطالعته حتى كاد يحفظه عن ظهر قلب، ووضع العناوين لفصوله، واتخذ له فهارس. يصنع ذلك لنفسه لا يفكر في طبعه ولا في نشره. فلما رأيت ذلك، ورأيت الكتابَ جيداً جداً ونسخَه قليلةً جداً، فكرت في نشره. وكان في الكتاب كثير من التحريف والخطأ،

---

(١) أي وقت كتابة هذه المقدمة قبل أربعين سنة، وقد جاء إلى المملكة بعد ذلك فعمل مستشاراً في وزارة الحج، وتوفي ـ رحمه الله ـ في بيته بالشام في صيف سنة ١٩٩٨؛ أي قبل وفاة جدي بسنة واحدة. وهو شاعر أديب فقيه، ومن ظرفاء الرجال، وله أشعار منشورة في كثير من المجلات (من أقدمها ما نشره في «الرسالة»)، وقليل من المؤلفات المنشورة.

ففتشنا عن نسخ منه مخطوطة، وأمدنا الصديق الدكتور صلاح الدين المنجد (مدير معهد المخطوطات) بها، فاشتغل أخي ناجي بمقابلة المطبوع عليها، وحققه ما استطاع، وإن لم يسلم من كثير من الغموض ومن آثار تحريف النُسّاخ لأنه لم يجد نسخة مخطوطة صحيحة يعتمد عليها».

وقد راجع جدي الكتاب وعلَّق عليه مئات من التعليقات المفيدة ووضع له مقدمة طويلة ـ في نحو أربعين صفحة ـ تكاد تكون كتاباً أو كتيباً قائماً بذاته عن الكاتب والكتاب.

وهو ـ في دراسته للكتاب وتعليقه عليه ـ لا يخفي إعجابه بابن الجوزي، فيقول في أول المقدمة: «وأنا قديم التعظيم لابن الجوزي قديم الحب له...»، ولكن هذا لا يمنعه من أن ينظر إلى ما كتبه ابن الجوزي بعين العقل ويزنه بميزان الشرع، ثم يمضي فينقده نقد الدارس المُنْصف، فيقول في المقدمة: «رأيت المؤلف ـ رحمه الله ـ يقع أحياناً في تناقض فيسوق الرأي قد ساق من قبل ضده، ويأتي بآراء لا يُسلَّم له بها ولا يجوز السكوت عنها، فكنت أعلق على ذلك بما أبيِّن به الصواب الذي أعرفه». ثم نجد في بعض التعليقات: «لا أدري من أين جاء المؤلف بهذا!»، و«هذا حكمٌ لا يصحُّ إطلاقه»، و«لا أستحسن من المؤلف هذا»... ويصحح له خطأً لغوياً: «لا يُقال: «الغير»؛ لأن «غير» أبلغ الألفاظ في التنكير فلا تعرَّف»، ويعلِّق على قول المؤلف: «المئة رطل» بقوله: «الفصيح أن يُقال: مئة الرطل أو المئة الرطل»، ويعلق على تعبير غامض للمؤلف بقوله: «وهذه الجملة مثال على تعقيد المؤلف وقصور تعبيره أحياناً». ويناقشه في حكمه على شيخَي الإسلام؛ الجويني والغزالي، ويرفض التسليم له بما قال عنهما. ومثل هذا كثير.

* * *

الإسلاميات

في مقدمة القسم الثاني من الكتاب أشرتُ إلى صعوبة فصل كتاباتٍ بعينها من كتابات جدي، الشيخ علي الطنطاوي، لتكون هي ـ دون غيرها من كتاباته ـ الكتابات الإسلامية، فالفكرة الإسلامية (كما يسمونها) تكاد تكون قاسماً مشتركاً وجامعاً عاماً لكل ما كتب، بل هي كذلك في نتاجه كله: من مقالة مكتوبة، أو خطبة مرتجَلة، أو حديث مُذاع. لقد عاش الإسلام في قلبه حياً نابضاً بالحياة يوم مات في قلوب الناس، وفي روحه ظافراً منتصراً حين سيطر الخمول واليأس على أرواح الناس، وفي عقله صافياً صحيحاً وقد تمكنت الخرافات والبدع من عقول الناس، ومضى يدعو إلى الله على بصيرة بجرأة وعزم وصبر طويل، يكافح ـ من ناحية ـ إفساد المبطلين ويدافع ـ من ناحية أخرى ـ غلوّ الغالين.

فأيُّ شيء مما كتب سيعجزني أن أصنِّفه في الإسلاميات؟.

فلما كان هذا هو واقع الحال، فقد اخترت لهذا القسم من مؤلفات علي الطنطاوي ما هو أولى به من سواه، واقتصرت على الكتب الأربعة التي أشرت إليها سابقاً. ولكن ليس هذا هو كل شيء، فقد غلب هذا الجانب على الشيخ في آخر ثلاثين عاماً من حياته؛ فكان أكثر ما أذاعه من أحاديث من هذا الباب، من فتاوى في برنامجيه «مسائل ومشكلات» و«نور وهداية»، أو أحاديث إسلامية عامة (في أكثر السنين) في برنامج رمضان «على مائدة الإفطار». وقد أشرت ـ من قبل ـ إلى أن العمل جارٍ في إخراج كتب جديدة للشيخ تضم ما لم يُنشَر من مقالاتٍ في كُتُبٍ من

قبل، وأُضيف ـ هنا ـ أن هذه الفتاوى والأحاديث المذاعة ستجد طريقها إلى النشر كذلك بإذن الله، فإذا ما يسَّر الله ذلك فسوف يكون هذا القسم أحفلَ أقسام مؤلفات جدي وأغزرها بالمؤلفات. أسأل الله أن يعين على هذا وأسأل من قرأ هذه الكلمات أن يثنّي بالدعاء.

* * *

فصول إسلامية

يضم هذا الكتاب اثنتين وثلاثين مقالـة نُشرت في أزمنـة متباينة، من أواخر الثلاثينيات إلى أوائل السبعينيات، ويقع في (٢٧٠) صفحـة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤). وقد صدر للمرة الأولى في عام ١٩٦٠ ثم أعيدت طباعته مع زيادات في عام ١٩٨٥ .

بعـض مـا فـي هـذا الكتـاب تـدويـنٌ لخطـب، وبعـضٌ خـلاصـةٌ لمحاضرات، والباقي مقالات نُشرت في الصحف والمجلات على مدى نحو من ثلث قرن. وهذا التنوع يظهر كيف استغلّ علي الطنطاوي كل موقف متاح وكل مناسبة ممكنة للحديث عن الإسلام والدعوة إليه، كما قال في مقدمته للكتاب: «هذه فصول إسلامية، كُتبت في أزمنة متباعدة، فاختلف أسلوبها، ولكن اتَّحدت ـ بحمد الله ـ أغراضها ومقاصدها. وربما تكررت فيها المعاني؛ ذلك لأنَّ الشُّبَه تكرَّرَ ورودها فاضطررنا لتكرار ردِّها، وإن من الحقائق ما لا تضرُّ معه الإعادة ولا تُبليه كثرة الرد. وأنا أسأل الله أن ينفع بها، وألاَّ يحرم كاتبها الثواب عليها». قولوا: اللهمَّ آمين.

ها هو ذا يتحدث عن «دعوة الإسلام» في خطبة جمعة ألقيت على منبر مسـجد جامعة دمشق سـنة ١٩٥١، فيقدم صورة مجملة واضحـة للإسلام لا اضطراب فيها ولا لبس ولا خفاء: «افتحوا أي كتاب من كتب الفقه تروا فيه باب العبادات؛ وهذا وحده الدين في عرف الأوروبيين،

وباب المعاملات؛ وهذا هو القانون المدني، وباب العقوبات؛ وهذا هو القانون الجزائي، وباب المناكحات؛ وهو قانون الأحوال الشخصية، وأحكام الإمارة والبيعة؛ وهو الدستور، أي القانون الأساسي، وباب الجهاد؛ وهو القانون الدولي».

ويسأل: «من هو المسلم؟» في مقالة نشرها سنة ١٩٣٩ ثم يجيب موضحاً: «ديننا علم واعتقاد وعمل. وليس في الدنيا عمل لا يدخل فيه الإسلام ويبين فيه حكم الله؛ فإما أن يكون مباحاً لا يُثاب فاعله ولا يعاقَب تاركه، وإما أن يكون مندوباً يُثاب فاعله ولا يعاقَب تاركه، وإما أن يكون واجباً يُثاب فاعله ويعاقَب تاركه، وإما أن يكون مكروهاً يُثاب تاركه ولا يعاقَب فاعله، وإما أن يكون حراماً يُثاب تاركه ويعاقَب فاعله».

ويتحدث عن «طرق الدعوة إلى الإسلام» في محاضرة ألقيت في حفل تعارف الحجاج في مكة في موسم الحج سنة ١٩٥٣ فيصنف هذه الطرق ويصفها ويفصل عيوبها ومزاياها. وهي محاضرة أُفردت ـ من بعد ـ بالنشر في رسالة صغيرة.

وكذلك نُشرت في رسالة منفردة محاضرةٌ أخرى مما ضمّه هذا الكتاب هي محاضرة «المثل الأعلى للشباب المسلم»، التي ألقاها المؤلف في بيروت سنة ١٩٣٧ وعرض فيها الإسلام عرضاً واضحاً جلياً مفصلاً، ثم بين ما على الشباب من واجبات علمية واجتماعية وأخلاقية وهو يهتف بهم: «فيا شباب المسلمين، تجردوا لأداء الواجب وإسماع العالم صوت الإسلام».

وفي الكتاب محاضرة ثالثة نُشرت ـ كذلك ـ في رسالة منفردة هي محاضرة «موقفنا من الحضارة الغربية»، وهي محاضرة طويلة تشغل ثلاثين صفحة من الكتاب، وقد ألقاها الشيخ (كما جاء في تقديم صغير لها في أولها) ارتجالاً سنة ١٩٧٣ فسُجِّلت ودونها بعضهم نقلاً عن الشريط.

وقد تحدث في هذه المحاضرة كيف انفتح العالم الإسلامي فجأة ـ بعدما عاش قروناً في عزلة شبه كاملة، مادية وفكرية ـ على الحضارة الغربية المعاصرة: «وأصبحنا يوماً، فإذا الحرب العامة (يريد الحرب العالمية الأولى؛ وكذا كانوا يسمونها) تنقضي، وإذا السد الذي كان بيننا وبين الغربيين يسقط، وإذا هذه الحضارة تدخل علينا فجأة. تدخل علينا بخيراتها وشرورها، بمحاسنها ومساوئها. يا سادة: إن الذي يخرج من الغرفة المظلمة إلى ضوء الشمس تمر عليه لحظات يزيغ فيها بصره فلا يستطيع أن يميز ما حوله، وكذلك كنا نحن سنة ١٩١٨. لقد أصابت الناسَ صدمةُ المفاجأة، فأما كثرتهم وجمهورهم فأغمضوا عنها عيونهم، وأغلقوا عليهم أبوابهم، وتجاهلوها ولبثوا يعيشون كما تعودوا العيش. وقليل منهم تنبهوا إليها واهتموا بها... وهذا مثال الأمم كلها في عصور الانتقال». والمحاضرة طويلة ولكنها عظيمة النفع والقيمة.

أما في مقالة «كتاب في الدين الإسلامي»، التي نشرها عام ١٩٣٩، فنجده يدعو العلماء إلى تقديم الإسلام في كتاب سهل مفهوم؛ «كتاب واحد يلخِّص الإسلام كله تلخيصاً وافياً، ويعرضه عرضاً واضحاً، يقرؤه الشاب فيفهم فيه الدين كله كفهم الوافدين على النبي ﷺ الدينَ، حين دخلوا فيه أفواجاً». وهي الدعوة التي انتهت به ـ بعد ثلاثين سنة من كتابة هذه المقالة ـ إلى تأليف كتابه الأشهر: «تعريف عام بدين الإسلام».

وفي الكتاب ـ بعد ـ كثير من المقالات الممتعة المفيدة؛ ففي مقالة «كلمة في الاجتهاد والتقليد» بحث نفيس ممتع في هذا الموضوع، ومثل ذلك في مقالات «الإيمان» و«علم التوحيد» و«حلول قديمة لمشاكل جديدة». وفيه مقالات قصيرة موجزة ولكن فيها خلاصة كافية بأسلوب محبب مقنع للموضوع الذي تعالجه، مثل مقالات «الصبر» و«الاستخارة» و«البر باليتامى» و«تحريف لمعنى الإسلام» و«كلمة في المعجزات والكرامات».

* * *

في سبيل الإصلاح

ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام ١٩٥٩ ، وهو يضم ثلاثاً وثلاثين مقالة يعود أكثرها إلى عشر الأربعينيات ، ويقع في (٢١٠) صفحات من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤) .

كما قلت من قبل : كان «الإصلاح» واحداً من المقاصد الكلية العظمى لمسيرة علي الطنطاوي العلمية والأدبية ، وكان السعي إليه والعمل في سبيله واحداً من أهم معالم سيرته . لقد كتب وخطب في سبيل الإصلاح ، وحاضر وسافر في سبيل الإصلاح ، وكافح ونافح في سبيل الإصلاح ، وعاش حياته كلها في سبيل الإصلاح . فكيف لا يحمل واحدٌ من كتبه ـ بعد هذا كله ـ هذا العنوان؟! .

لقد كانت رسائل «في سبيل الإصلاح» من أول ما كتب في حياته (كما رأيتم في حديثنا عن الآثار القديمة لعلي الطنطاوي)، وقد عاد فنقل لنا ـ في مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب ـ بعض ما صدَّر به تلك الرسائل ، فقال : «في غرة رجب سنة ١٣٤٨ نشرت أول كتاب لي وهو «رسائل في سبيل الإصلاح» ، وقد قلت في مقدمته إننا «إن لم نجد في عصرنا من المصلحين كالذين كانوا في الصدر الأول ، فلا أقلَّ من أن نتشبه بهم ، ونسلك سبيلهم ، فنصيح بالناس بقدر ما في حناجرنا من قوة ؛ ندعوهم إلى الإصلاح ، وندلُّهم على طريقه ، وإذا جاءت أصواتنا خافتة فضاعت في جَلَبة المجتمع فلم تُسمَع ، فإنَّ حسبنا أن فعلنا ما استطعنا . وهذه الفصول صيحتي ، وإنها لضعيفة ، بل هي أشبه بالهمس ، ولكنها غاية جهدي . ولم أرِدْ أن أدلَّ بها على علم عندي ؛ فإن كل ما قلته يعرفه القراء ، ولكن أردتُ أن أذكِّر بها مَن نسي ، وأنبِّه من غفل» . واليوم ، في غرة رجب سنة ١٣٧٨ ، أنشر كتابي

هذا؛ «في سبيل الإصلاح»، فلا أجد ما أقدم له به إلا هذا الكلام الذي قلته قبل ثلاثين سنة كوامل».

كان هذا ما جاء في مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب. ثم هو يعود بعد ثلاثين سنة أخرى ليكتب لنا مقدمة الطبعة الثانية منه، ومما جاء فيها: «إني حين أفكر فيما كانت عليه الدنيا وأنا في صدر حياتي ومطلع صباي وما هي عليه الآن أحسُّ كأني صعدت إلى رأس المئذنة ووقفت عند الهلال لا أستند إلى شيء، أنظر من تحتي إلى ما حولي فأحسُّ أن الدنيا تدور بي حتى أكاد أسقط على رأسي. لقد كان تبدُّلاً يكبر عن التصديق، ولكن هل كان خيراً كله؟ الجواب: لا. هل كان شراً كله؟ الجواب: لا. إن فيه خيراً من الواجب علينا أن نتمسك به، وفساداً علينا أن نصلحه. ومن هنا حاولت ـ وأنا أكتب وأؤلف وأخطب وأحاضر من ستين سنة ـ أن أجعل حظاً من عملي هذا في سبيل الله ثم في سبيل الإصلاح».

ولقد كان كذلك، وما المقالات التي جمعها هذا الكتاب غير قدر يسير مما قدمه في هذا الباب. وهو ـ أبداً ـ يهتم بأساس الإصلاح ولبّه فلا يَضيع (كما يصنع كثير من الوعاظ والمحدثين) في القشور ولا يُضيع فيها الناس. في مقالة «أخلاقنا» (التي نشرها عام ١٩٣٨) يقول: «نحن اليوم ـ في أكثر بلدان الشرق الإسلامي ـ في دور يقظة ومطلع نهضة، ولكل نهضة جسم وروح؛ أما الجسم فهذه السياسة وما يتصل بها، وهذه الدواوين الحكومية وما يكون فيها، وهذه القوانين والأنظمة وما ينشأ عنها؛ وأما الروح فهو الأخلاق والعقائد والمثل العليا. فروح الحكم الإخلاص والقناعة والعدل بين الناس، وروح الوظيفة الاستقامة ومعرفة الواجب، وروح المدرسة تنشئة جيل المستقبل على المثل العليا، وروح الصحافة نشر الحق والفضيلة والخير... فهل امتدت نهضتنا إلى الروح؟ أم هي قد اقتصرت على الجسم وحده؛ لم نُعْنَ إلا به، شأننا في كل أمر من أمورنا حين نهتم بالقشور ونقف عند الظواهر؟».

إن مقالات الكتاب حافلة بالدعوة إلى الخير والصلاح ومكارم الأخلاق؛ فنجد الدعوة إلى الفضيلة ومحاربة الفساد العنصرَ الأبرز في عدد منها، كما في: «دفاع عن الفضيلة» و«رجل في ملابس النساء» و«مناظرة هادئة» و«إلى علماء مصر» و«المشكلة الكبرى».

ولكن المؤلف ـ في دعوته إلى الإصلاح ـ لا يحصر اهتمامه بهذا الأمر وحده، ولا بجانب دون آخر من جوانب حياة الفرد وحياة المجتمع؛ فنجد الانتصار للفقراء والدعوة إلى العدالة الاجتماعية في مقالات: «إنذار» و«تاجر حرب» و«بطون جائعة وأموال ضائعة» و«يا أيها الأغنياء» و«إلى القرية يا شباب». ونجد تشخيصاً وعلاجاً لمشكلاتٍ اجتماعية (كالغش والمماطلة والتطفل والاستهتار والفردية والأنانية والنفاق وضياع الأمانة) في مقالات: «الأمانة» و«من أخلاقنا» و«حق الضيافة» و«في القهوة» و«بين الزوجين». ونجد دعوة إلى إصلاح التعليم وإحياء اللغة في مقالات: «مستقبل الأدب» و«دفاع عن الأدب» و«أسلوب جديد في التعليم» و«لو أقر المجمع» و«الأدباء الرسميون». ويدافع عن الأزهر ويدعو إلى إصلاحه في مقالتي: «إن هذا العلم دين» و«إلى علماء الأزهر».

وها هو ذا ـ أخيراً ـ مقطع من مقالة «أين الأقلام؟» (التي نُشرت سنة ١٩٤٦) أختتم به عرضي لهذا الكتاب: «نحن ـ اليوم ـ في معركة مع الاستعمار قد اندلعت نارها، وطار في كل أرض من أرض الإسلام شرارها. فهل رأيت جيشاً في معركة يدع مدافعه فلا يطلقها، وينسى دباباته فلا يسيِّرها، ويلقي بنادقه فلا يحملها؟ وهذا ما نفعله نحن حين نهمل أقلامنا فلا نسخِّرها في هذا النضال. وإن من أمضى أسلحتنا وأنفذها وأبقاها على الزمان وأثبتها للغِيَر لَهذه الأقلامُ؛ فما لِهذه الأقلامِ نائمةٌ لا تفيق، جامدة لا تتحرك؟ وما لبعضها لا يزال يلهو ويلعب؛ كأنه مدفع العيد يتفجر بالبارود الكاذب وسط المعمعة المدلهِمَّة التي جُنَّ فيها الموت؟!».

* * *

تعريف عام بدين الإسلام

يقع هذا الكتاب في (١٩٠) صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤). وقد نشر أول الأمر مقالات في جريدة «المدينة» السعودية سنة ١٩٦٩، ثم نشرته وزارة المعارف الأردنية في عدد خاص من مجلتها «رسالة المعلم»، وبعد ذلك نُشر في كتاب أعيد طبعه إلى اليوم أكثر من ثلاثين مرة وتُرجم إلى عدة لغات.

يتألف هذا الكتاب من اثني عشر فصلاً ومقدمة وخاتمة. فأما المقدمة (وهي بعنوان: «بين يدي الكتاب»، وفيها تصوير جميل لمعاني الفطرة والتكليف وطريقَي الجنة والنار وحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة) فقد طُبعت (ومعها الفصل الأول: دين الإسلام) منفردةً في رسالة صغيرة باسم «تعريف موجز بدين الإسلام» وتُرجمت إلى لغات عديدة.

وأما الفصول الاثنا عشر فتعرض أبواب الإيمان جميعاً عرضاً واضحاً موجزاً يفهمه الكبير والصغير ويستمتع به العلماء والمثقفون وعامة الناس جميعاً؛ وهذه الفصول منها ثلاثة بمثابة المدخل للموضوع والتمهيد لباقي الكتاب، وهي: دين الإسلام، وتعريفات، وقواعد العقائد. والتسعة الباقية تشرح العقيدة وتبيِّنها بما أسلفتُ من تيسير وتبسيط، وهي: الإيمان بالله، وتوحيد الألوهية، ومظاهر الإيمان، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، والإيمان بالغيب، والإيمان بالملائكة والجن، والإيمان بالرسل، والإيمان بالكتب.

لقد وُلد هذا الكتاب فكرةً في عقل علي الطنطاوي حملها معه في قلبه وضميره مذ كان في الثلاثين من عمره، وما زال يرجوه ويدعو إلى تأليفه ثلاثين سنة أخرى حتى وفقه الله إليه وأعانه على تأليفه. وقد رأيتم ـ من قبل ـ كيف دعا إليه وحثَّ عليه في مقالة له نشرها في عام ١٩٣٩ بعنوان «كتاب في الدين الإسلامي» فقال: «كان الأعرابي يقعد بين يدي النبي ﷺ ساعة من زمان يستمع فيها إليه، فلا يقوم إلا وقد فهم الإسلام وعرفه وصار من المبشِّرين به والداعين إليه... كان هذا يوم لم يكن تدوينٌ ولم تكن مصنَّفات، وها نحن أولاء نملك أكثر من مئة ألف كتاب في كل ما يخطر على بال باحثٍ من المسائل المتصلة بالإسلام، ولكنَّا لا نجد فيها كتاباً واحداً لخَّص الإسلام كله تلخيصاً وافياً وعرضه عرضاً واضحاً، يقرؤه الشاب فيفهم فيه الدين كله كفهم الوافدين على النبي الدينَ». ثم يعود فيقول في مقالة أخرى نشرها في نفس السنة بعنوان «كتاب الدين الإسلامي»: «أما والله لولا اعتقادي بأن شباب المسلمين هم أحوج اليوم إلى هذا الكتاب منهم إلى الخبز الذي يأكلونه، والهواء الذي يستنشقونه، ما عدت إليه بعد إذ تكلمت فيه، ولا ألححت عليه هذا الإلحاح بعد أن وجدت من علمائنا ذلك الإعراض».

ولكن كيف انتهى به الأمر إلى أن يؤلف الكتاب بنفسه بعدما لبث يدعو لتأليفه العلماءَ دهراً؟ الجواب في «قصة هذا الكتاب»، وهي قصة ممتعة صدَّر بها جدي الكتاب، وهذا بعض ما جاء فيها:

«تنبَّهت مبكراً إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري، وكتبت في ذلك مقالات، ونشرت رسائل، ذكرت فيها ـ من نحو خمسين سنة ـ بعض الآراء التي أوردها اليوم في هذا الكتاب. ثم صحَّ العزم مني على إصدار كتاب في هذا الموضوع، وجعلت عنوانه: «لماذا أنا مسلم؟»، وأعددت فصوله وأعلنت عنه ونشرت مقدمته في رسائل «سيف الإسلام»

التي كنت أصدرها سنة ١٩٣٠، ولكن تعذَّر الطبع وضاعت الأصول ولم يصدر الكتاب. ولما ذهبت إلى العراق سنة ١٩٣٦ مدرّساً للأدب العربي في الثانوية المركزية في بغداد جعل الطلاب يسألونني عن كتاب واحد يفهمون منه الإسلام، يعرضه كما كان رسول الله ﷺ يعرضه على من يفد عليه من العرب فيفهمونه في يوم أو في بعض يوم، فلم أكن أجد مثل هذا الكتاب، فكتبت في الرسالة مقالات أدعو فيها العلماء إلى تأليف هذا الكتاب، وأعدت الدعوة، فما استجاب لها أحد.

ومرَّت الأيام... ولكن هذا الكتاب لم يؤلَّف. وجاءت سنة ١٣٨٧هـ فنشرت مقالة في مجلة «رابطة العالم الإسلامي» عنوانها: «تعريف عام بدين الإسلام» تنبه لها الصديق الشيخ محمد عمر توفيق، وزير الحج يومئذٍ، فكتب للرابطة لتكليفي بتأليف كتاب في هذا الموضوع. وعملت الصيف كله، والسنة الجامعية بعده، وتجمَّعتْ لديّ ثلاثة ظروف كبار فيها فصول كاملات، وفيها قصاصات ومذكرات تحتاج إلى تصنيف وترتيب وعمل كثير. وجاء الصيف الجديد، وذهبتُ إلى عمان، ومن خوفي على هذه الظروف حملتها بيدي... وشُغلت بمتاعب الانتقال، ومباهج الاستقبال، ولقاء الأصحاب والآل، فلم أذكرها إلا بعد أسبوعين، فبحثت عنها فلم أجدها، ونفضت الدار نفضاً، وسألت كل سائق سيارة، وراجعت كل مخفر شرطة، فلم أصل إلى شيء. وبقيت أياماً وأنا ذاهل متألم؛ لا أهنأ بطعام ولا أستغرق في منام، حتى إذا هدأت نفسي ورجع لي عقلي قررت أن أستعين بالله وأبدأ من جديد. وباشرت العمل وأنجزت هذا الجزء في عشرة أيام، وحملت مخطوطته معي إلى مكة. أما الجزء الثاني والجزء الثالث، اللذان أرجو أن أتكلم فيهما عن الإسلام وعن الإحسان (أي السلوك الإسلامي)؛ فأنا والله في خجل من القراء، وعذري أن القلوب بيد الله، وهو باعث الهمم ومنشئ العزائم، وقد ـ والله ـ ضعفت همتي، ووهن العزم مني. فإن ألهم الله واحداً من القراء ودعا لي بظهر الغيب

بأن يسهِّل الله عليّ كتابة الجزأين، كتبتهما بتوفيق الله وعونه كما كتبت الأول في عشرة أيام. ولكن متى تجيئ هذه الأيام العشرة؟ العلم عند الله».

وشاء الله ألاّ تجيئ الأيام العشرة هذه أبداً، فمضى جدي إلى رحمة الله وهو يرجوها بهذا الكتاب: «وأنا أرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب، وأن يكون زاداً لي يوم لا زاد إلا التقوى وصالح الأعمال».

* * *

الفتاوى

يقع هذا الكتاب في (٣٢٠) صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤)، وقد طبع أول مرة في عام ١٩٨٥ وأُعيد طبعه بعد ذلك أكثر من عشر مرات.

جمع هذا الكتابُ طائفةً من الفتاوى التي كانت قد نُشرت في جريدة «الشرق الأوسط» بين أواخر سنة ١٩٨٢ وأوائل سنة ١٩٨٤، وقد نحا فيها جدي نحواً جديداً مبتكراً في تبسيط[١] جواب كل مسألة وتبويبه في فقرات مرقَّمة يسهُل فهمها ويمكن لكل واحد من الناس استيعابها. فلما اجتمع لديه قدر منها قرر أن ينشرها في كتاب منفرد.

وقد عهد إليّ أولاً أن أرتب هذه الفتاوى في الكتاب، فحرت كيف أصنع، وترددت أأتبع نهج كتب الفقه وتبويبها المألوف أم أرتِّبها بنظام يراعي اهتمام الناس، ثم رأيت أن الخيار الثاني أولى فمضيت فيه. ثم عهد إليّ بتصحيح تجارب طبع الكتاب ففعلت، ولما انتهيت منها حملتها إليه في بيته بمكة فقال: «والآن اكتبْ مقدمةً للكتاب». فأما الترتيب والتصحيح فلم يكن أمراً ذا شأن، وأما هذه الأخيرة فمسألةٌ هبتها واستكبرتها فتهربت منها وتنصلت، ولكنه ـ رحمه الله ـ أصرّ عليّ وأصرّ، ثم حمَّلني ورقة وحبسني في غرفة حتى أكتبها، فلما أنجزتها وحملتها إليه استحسنها ووافق على أن تتصدَّر الكتاب. ولعل كل من قرأ «الفتاوى» من بعد يسأل: «وما حاجة علي الطنطاوي إلى أن يقدِّم لكتابٍ من كتبه شابٌّ لم يسمع

(١) استعمل جدي تعبير البساطة ـ بهذا المعنى ـ في كثير من كتاباته، ولكنه نبَّه دائماً في حواشي الكتب إلى أن البسيط ـ في الأصل ـ هو الواسع والبساطة هي السعة.

باسمه أحدٌ من الناس؟». والحقيقة أنه لم يُرِد ـ بذلك ـ غير أن يشجع ذلك الشاب ويدفعه في طريق الكتابة والتأليف، ولكن الشاب خيب أمله فلم يصنع شيئاً في خمس عشرة سنة تلت!.

لقد ضم هذا الكتاب مئة وستاً وسبعين مسألة رُتِّبت في اثنين وعشرين باباً، وهذه الأبواب ـ حسب ترتيبها في الكتاب ـ هي: المنامات والكرامات والجن والأرواح، والقرآن الكريم (ويضم فتاوى في رسم المصحف وترتيبه والحروف المقطعة في أوائل بعض سوره)، والمذاهب (وفيه فتاوى عن نشوئها واختلافها والموقف الصحيح منها)، والإسلام (وفيه مسائل عن معناه وصلاحه لكل الأزمنة وعن معنى الأمانة التي حملها الإنسان، وبحث عن القومية والإسلام)، والصوفية، ومشكلات الشابات المتدينات، وطفل الأنابيب والغناء والصور والتدخين، وتقنين الأحكام الشرعية والحكم بشرع الله، وفتاوى في المال والمعاملات المالية (وهو باب يضم فتاوى عن الشركات المساهمة والبيع بالتقسيط والربا والإيجار وحبس المدين وبعض المسائل المتفرقة الأخرى)، ومشكلات الشباب، وحجاب المرأة ولباسها وزينتها (ويضم مسائل متفرعة عن هذا الموضوع كعمليات التجميل والنمص وثقب آذان البنات والذهب المحلَّق)، والحيض والغسل والرضاع والحضانة والعدة، والزواج والطلاق، والطهارة والنجاسة، والصلاة، والصيام وإثبات دخول رمضان بالحساب، والحج والعمرة، والزكاة وزكاة الفطر، والميراث والوصية الواجبة، والأنبياء والصحابة، وأسئلة لغوية وأسئلة عن أحاديث وأدعية، وأخيراً موضوعات متنوعة (وهو باب يضم ما لم يمكن تصنيفه في أي من الأبواب السابقة؛ مثل محبة الله ومخافته، والزهد في الدنيا، وثواب من يعمل الخير من غير المسلمين، والقتل الخطأ، وغسل الشهيد، وبر الأم، والاحتفال بعيد الأم، وتبنّي اللقيط، وإسقاط الجنين لغرض طبي، والتصفيق للخطيب، وزيارة القبور، وقتل الكلاب الضالة). وقد تفاوتت هذه الأبواب في سعتها وكثرة ما فيها من فتاوى، ولعل أطولها ـ كما سيتوقع كثير من القراء ـ هي أبواب «الزواج

والطلاق» و«الصلاة» و«الصيام» و«الحج»، وهي الموضوعات التي يكثر عنها ـ غالباً ـ السؤال.

ولكن هل هذه هي كل فتاوى جدي رحمه الله؟

لعلكم تذكرون ـ مما قرأتم في القسم الأول من هذا الكتاب من عرضٍ موجز لسيرته ـ أنه كان يجيب عن أسئلة وفتاوى الناس بالهاتف من بعد العصر إلى قبيل المغرب كل يوم، ثم كان يقعد في الحرم مقعداً عامّاً للفتوى بين صلاتي المغرب والعشاء؛ وقد لبث على ذلك سنين طوالاً. أمّا فتاواه في برنامجي الإذاعة والرائي فقد سمعها الناس لنحو ربع قرن. فكان أن اجتمع من هذا كله قدر عظيم من الفتاوى يملأ ـ لا ريب ـ مجلدات، ولكن هذه الفتاوى لم تُنشر قط لأنها لم تُكتب أبداً؛ بل كان يقدمها ارتجالاً في وقتها ثم يودعها شريطاً مسجَّلاً ويمضي. لذلك قلت في مقدمة هذا الكتاب: «لقد حمل هذا الكتاب اسم «فتاوى علي الطنطاوي»، وهو اسم ناقص قد سقطت منه الكلمة الأولى، فالصحيح أن هذا الكتاب هو «من فتاوى علي الطنطاوي»؛ ذلك أن جدي ما زال يفتي من إذاعة المملكة ورائيها منذ نحو عشرين سنة، وهو قد مكث قبل ذلك دهراً يفتي لسنوات طوال من غير هذه الإذاعة ومن غير هذا الرائي. أفيُجمَع ذلك كله بعد هذا الزمان في كتاب كهذا الكتاب؟ بل لو دُوِّن المسجَّل فقط من تلك الفتاوى (والمسجَّل منها يزيد عن ألف ساعة) لملأ من مثل هذا الكتاب خمسين!».

فهل من أمل في أن يظهر شيء من هذا العلم النافع على الناس؟ إذا شاء الله: نعم، بل ربما لا تمضي شهور معدودات على نشر الكتاب الصغير هذا إلا والجزء الثاني من فتاوى علي الطنطاوي بين أيدي الناس. ولهذا الأمر قصة طويلة لن أذكرها هنا فارتقبوها في مقدمة الكتاب الجديد.

* * *

التّاريخيّات

كان جدي يقرأ في كل موضوع وينظر في كل كتاب يقع بين يديه، ولكنه كان يفضّل أشياء على أشياء، فكان أكثر ما يحب قراءته كتب الأدب، وفي المقام الثاني -بعدها- كتب التاريخ. ولقد قرأ -من شبابه- كتب التاريخ الطوال؛ كتاريخ الطبري والكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير وأمثالها، بل وقرأ بعضها مرات فيما أعلم[1]. وقد كان يوصينا - ونحن شباب - بقراءة كتاب «تاريخ الخلفاء» للسيوطي، ولقد رأيت في مكتبته نسخة منه قديمة كتب في أول صفحة منها عدد المرات التي قرأ فيها الكتاب وسنة كل قراءة فوجدته قد قرأه أكثر من عشرين مرة. وقد قال عن نفسه في مقدمته للطبعة الجديدة من كتاب «رجال من التاريخ»: «أنا مدمن القراءة؛ يومي كله - إلا ساعات العمل - أمضيه في المطالعة ومحادثة الكتب، وأكثر ما أولعت به التاريخ... فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم، ومن المذكرات والرحلات والمشاهدات».

فلم يكن غريباً - إذن - أن يتجه للكتابة في التاريخ مبكراً. ولئن كان قد قرأ في التاريخ كل هذه الكتب الطويلة، فإن أكثر ما كان يحب أن يُظهره منه للناس هو سير عباقرة الإسلام ومواقف المجد والعظمة في تاريخه،

---

(١) قال جدي في كتابه «في أندونيسيا»، ص١٨٦: قرأت تاريخ الطبري كله غير مرة، وتاريخ ابن الأثير، وابن كثير، والمسعودي، وابن خلدون، وتاريخ ابن الجوزي، وأبي شامة وذيله، وقرأت تاريخ الخلفاء للسيوطي مرات، ونظرت في كتب التراجم فقرأت منها ما لا أحصيه.

وهـو ما صنعه حين وضع مناهج الكليات الشـرعية في الشام، فاستبدل بـالتاريخ السياسـي وأخبار الوقائع والمنازعات والفتن تـراجمَ الأبطال والعظماء من المسلمين.

وكذلـك صنع في كتاباته التاريخيـة؛ انتقى طائفة من العظماء في تـاريخ الإسلام فترجم لهم في كتـابه «رجال من التـاريخ» وفي سلسـلة كتيبات «أعـلام التاريخ»، واصطاد بعض المواقف الصغيرة فنسـج منها «قصصاً من التاريخ» و«حكايات من التاريخ»، وترجم لأعظم رجلين في الإسلام ـ بعد النبي ﷺ ـ، أبي بكر وعمر، في كتابين كبيرين.

هذه الكتب، بالإضافة إلى ما كتبه عن مدينته التي أحبها كما لم يحبها أحد، دمشق، وما كتبه عن جامعها الأموي، هي «تاريخيات» علي الطنطاوي التي سنستعرضها معاً في الصفحات التالية.

* * *

أبو بكر الصدّيق

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام ١٣٥٣هـ (١٩٣٥م)، وهو يقع في (٣٠٨) صفحات من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤)، ويضم في آخره فهرساً للأعلام التي ترجم لها المؤلف في حواشي الكتاب، وهي تزيد عن مئتي ترجمة.

ربما بدا تاريخ تأليف هذا الكتاب غريباً، ولكنه صحيح؛ فلقد ألّفه علي الطنطاوي وهو في السادسة والعشرين من عمره، وقد ألّفه ـ كما يقول في مقدمته ـ استجابةً لطلب من أحد الناشرين: «انتدبتني المكتبة العربية في دمشق لكتابة هذه السيرة الجليلة (وهي تقصد إلى نشر التاريخ الإسلامي ليعرف الشبان المسلمون أبطالهم وعظماءهم، وجلال ماضيهم وسموّ تاريخهم)، فأجبت ـ على عجزي وضعفي ـ آملاً أن أكون عاملاً صغيراً في هذا العمل الكبير».

ولكن موطن العجب ليس في تأليف الكتاب فحسب، بل هو في ذلك العدد الكبير من المراجع التي رجع إليها هذا الشاب، علي الطنطاوي، ليجمع لنا أخبار هذا الكتاب. ولقد سردها في آخر الكتاب فبلغت مئة مرجع أكثرها من الكتب الطوال التي تتصرَّم في قراءة أمثالها أعمارُ أمثالنا، وبعضها مخطوط. فكيف صبر على المراجعة في هذه الكتب جميعاً؟ بل وكيف صبر على جهد التأليف ومشاقّه؟.

هذا هو الجواب بقلمه أقتطفه من مقدمة الكتاب: «كنت أريد أن

أسلك في هذا الكتاب سبيل الدراسة التحليلية. . . ولكن «المكتبة العربية» تريد تاريخاً صحيح السند، مضبوط الرواية، وأن أجمع في كتاب واحد ما تفرق من سيرة الصدّيق الأعظم في عشرات الكتب التي لا يعرفها ولا يصل إليها إلا رجل له بصر بالتاريخ، وصبر على البحث، وباع في الأدب، ومشاركة في العلوم الإسلامية كلها. . . ثم لا يحصل منها في يده إلا روايات مقطّعة مكرّرة لا تخلو ـ أحياناً ـ من التضارب. وقد كرهت ـ بادي الرأي ـ هذا الأسلوب، وكنت امرأً لا صبر له على المراجعات الكثيرة، ولم يألف من الكتابة إلا الكتابة الأدبية الوصفية ولم يُقبِل على غيرها من سنين طويلة[1]. . . وقلت: كيف أحبس نفسي على كتاب واحد وأحمل همَّه أياماً طويلة، وأنا لا أحمل همَّ ما أكتب ولا أفكر فيه إلا حين أكتب، ولا أطيق أن أعود إليه بتصحيح أو تنقيح؟».

ولكنه فعل، وقد ذهب فنقب في مئات المجلدات حتى جمع لنا أخبار الصدّيق في هذا الكتاب، ثم رتَّبها وبوَّبها، وعارض بعضها ببعض (كما قال في المقدمة) وتحرَّى الصحيح منها؛ وعلَّق عليها بمئات الحواشي والتعليقات، وصنع للكتاب مقدمة وخاتمة. وأحسب أنه ـ لو أطلق الناشر يده في الكتاب ـ لكان أتى بأعمق وأعظم مؤلَّف عن الصدّيق أُلِّفَ قط!.

لقد قال عن أبي بكر رضي الله عنه في مقدمة الكتاب: «إن أبا بكر هو أعظم العظماء بعد الأنبياء». ثم قال في آخره: «من ذا الذي يستوفي في كتاب واحد سيرة أبي بكر كلها، وهي أفضل سيرة في الإسلام بعد سيرة سيد العالمين وخاتم النبيين، وأكملها وأحفلها بكل جميل وجليل؟ ومَن ذا يستوفي في كتابٍ واحد سيرةً يقرؤها الناقد البصير فلا يدري أنَفساً بشرية يرى أم نفس ملَك من الملائكة أودعها الله جسم إنسان من الناس؟.

أما الكتاب نفسه فقد رُتِّب في اثني عشر باباً؛ وهي: اسم أبي بكر

(١) مرة أخرى: كان ـ يومها ـ في السابعة والعشرين من عمره!.

الصدّيق ولقبه وكنيته، ونسبه وصفته، وخبره قبل الإسلام، وإسلامه وإسلام ناس على يديه، وهجرته إلى المدينة في صحبة النبي ﷺ، وأخباره ومشاهده بعد الهجرة، وخلافته، ومناقبه، وأخبار متفرقة عنه، ومرضه واستخلافه ووفاته، وأسرته، وأخيراً: المأثور من كلامه. وقد تفاوتت هذه الأبواب طولاً وقِصَراً؛ فبعضها موجز قصير (مثل الحديث عن اسمه ولقبه وكنيته والحديث عن شأنه قبل الإسلام)، وبعضها طويل يجاوز أربعين صفحة من الكتاب أو قريباً من ذلك (كالحديث عن أخباره ومشاهده بعد الهجرة والحديث عن خلافته).

وأخيراً، سأشير إلى أمر مهم؛ وهو أن هذا الكتاب هو أول كتاب أُلِّف في سيرة الصدّيق رضي الله عنه في عصرنا الحاضر فيما أعلم. وقد رأيت الإشارة إلا هذا الأمر ـ أولاً ـ في خاتمة الكتاب، وفيها: «هذا ما يسّر الله وانتهى إليه الجهد، نقدمه وفي النفس شعور بالنقص، وعلى اللسان اعتراف بالتقصير، ولكنه **أول كتاب في سيرة أبي بكر رضي الله عنه**، ولا بد فيه من عجز البداية عن بلوغ النهاية مع بعد الغاية». وأعترف أن هذه الإشارة قد أثارت عجبي، فما علمت أن أحداً لم يؤلف في سيرة الصدّيق قبل جدّي كتاباً كاملاً حتى قرأتها هنا، فلما قرأتها ذهبت أبحث فوجدت الأمر ـ على قدر ما وسعني البحث ـ كذلك، ولم أجد كتاباً سبقه، ورأيت في آخر ترجمة الصدّيق في «الأعلام» للزركلي: «ومما كُتب في سيرته «الصدّيق أبو بكر» لمحمد حسين هيكل، و«أبو بكر الصدّيق» للشيخ علي الطنطاوي» (وقد كان من منهج الزركلي ـ في كتابه العظيم ـ أن يستقصي ما أُلِّف عن صاحب الترجمة فيذكره في آخرها). وقد وجدت فيما كتبه جدي في الذكريات تصريحاً بأن محمد حسين هيكل قد أصدر كتابه بعد كتاب جدي ونقل عنه. قال[1]: «وضعت في كتابي «أبو بكر الصديق»

---

(١) في الجزء الأول من الذكريات، ص٧٦.

وكتـاب «عمر بن الخطاب» في الذيل مصدر كل خبـر (الكتاب والطبعـة والجزء والصفحة)فأخذ ذلك كُتّابٌ كبار وصغار منهم العقاد في العبقريات ومحمد حسين هيكل، ونسبوا الخبر إلى مصدره وأهملوا ذكر كتابي الذي نقلوا عنه اسم المصدر. ولي على ذلك أدلة وبراهين، وقد قلته من قبل. سامحهم الله!».

* * *

أخبار عمر

صدر هذا الكتاب في عام ١٩٥٩، وهو يقع في (٤٦٤) صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤)، وفي آخره فهارس كاملة للأعلام والقبائل والأماكن، ثم ثَبَت بمصادر الكتاب (وعددها (١٥٧) بين مطبوع ومخطوط).

وهو الكتاب الذي ورث الكتاب الأقدم، «عمر بن الخطاب»، الذي مرَّ بنا الحديث عنه ضمن الكتب القديمة، والذي قد أبقاني في حيرة من أمري أياماً وأنا أكتب هذا الكتاب. فقد احتوت معظم كتب جدي في آخرها قائمة بما صدر له من كتب، وكان من ضمن هذه الكتب كتاب «عمر بن الخطاب» الذي كان يُشار إليه - على الدوام - على أنه قد صدر في جزأين في عام ١٣٥٢هـ. وهنا المعضلة؛ فكتاب «أبو بكر الصدّيق» قد صدر في عام ١٣٥٣ دون ريب، وهذا ثابت في مقدمته وفي خاتمته (وقد حملت الأولى تاريخ: رجب ١٣٥٣ والثانية: شوال ١٣٥٣)، كما وردت الإشارة إليه في كثير من كتب جدي وفي بعض المواطن في الذكريات على أنه قد صدر في تلك السنة. والذي أعرفه أنا - من قديم - ولا أشك فيه أن هذا الكتاب سابق على كتاب عمر، وأن الناشر ذاته، «المكتبة العربية» بدمشق، قد طلب منه تأليف كتاب عن عمر بعد ما نشر له كتاباً عن أبي بكر، فكيف يكون نشره - إذن - قبله بسنة؟.

حرتُ - كما قلت قبل قليل - في هذه المسألة أياماً؛ أقلِّبها على كل وجه ممكن، وأبحث فيها ما وسعني البحث، وأسأل مَن استطعت سؤاله، فما وجدت لها حلاً ولا جواباً، بل وجدت (في بعض المواطن في الذكريات المنشورة) ما ينصّ على سنة اثنتين وخمسين تاريخاً لنشر كتاب

عمر. ولكني كنت أزداد يقيناً أن هذا غير صحيح؛ فليس يعتريني أي شك في معرفتي بأن الكتاب عن أبي بكر قد كُتب ونُشر قبل الكتاب عن عمر، ثم إن كتاب «أبو بكر» قد عُدَّ في مراجع كتاب «أخبار عمر». نعم، إن كتاب «أخبار عمر» ليس هو كتاب «عمر بن الخطاب» ذاته، ولكنه ـ كما سنرى بعد قليل ـ أُخذ عنه وبُني عليه، والمرجَّح أنه لم يُرجَع فيه إلى غير ما رُجِع إلى الكتاب القديم فيه.

وأخيراً وجدت الجواب في قطعة عثرت عليها من كتاب عمر القديم، وهي الفصل الأخير منه وقد حمل اسم: «خاتمة: عرض موجز لحياة عمر الفاروق»[1]، ويشغل هذا الفصل الصفحات من (٦٩٠) إلى (٧٣٧)، وفي آخره تاريخ كتابته: منتصف المحرم عام ١٣٥٦، وبعده «كلمة الختام» في صفحتين وفي آخرها التاريخ ذاته: محرم ١٣٥٦.

وهكذا أجزم أن كتاب «عمر بن الخطاب» قد صدر في جزأين في أول عام ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م). ولكن كيف صار ـ من بعد ـ كتاب «أخبار عمر»؟ القصة أن جدي قد كتب كتاب «عمر» (كما كتب كتاب «أبو بكر» من قبله) بطلب من ناشر اشترط عليه جمع الأخبار وتبويبها بلا تعليق ولا تحليل، وقد أراد أن يعود إلى الكتاب بعد سنين بتعديل وتغيير، فلم يجد مخرجاً من الخلاف غير أن يغير الكتاب تغييراً جذرياً ويعيد نشره بهذا الاسم الجديد. قال (في مقدمة كتيّب «قصة حياة عمر»): «... كتابي «عمر بن الخطاب» الذي كان قد اقترحه عليّ ونشره لي الصديق العالم الشاعر أحمد عبيد، رحمه الله، ثم نَقَضْتُ هذا الكتاب فبدَّلت فيه، وحذفت منه وزدت عليه، فكان كتاب «أخبار عمر» الذي يتداوله الناس».

وكما كان الحال مع كتاب «أبو بكر»، فقد كان هذا الكتاب ـ أيضاً ـ

---

(١) وقد نُشر هذا الفصل حديثاً في كتيّب من تسعين صفحة بعنوان: «قصة حياة عمر»، وبذا يكون قد عاد إلى أيدي الناس بعد غياب نحو ثلثي قرن!.

أولَ كتابٍ جامعٍ يؤلَّف في سيرة الفاروق رضي الله عنه في العصر الحاضر فيما أحسبَ، ولئن لم تَرِدْ في الكتاب إفادة صريحة بهذا الخصوص فإن في عموم إشارة الشيخ (التي نقلتُها عنه في جملة استعراض الكتاب السابق، وفيها يذكر نقل كثير من الكتّاب الآخرين عنه فيما كتبوا عن أبي بكر وعمر) ما يؤكد هذا المعنى.

أما أنا فلم أجد أعظم عن عمر العظيم كتاباً من هذا الكتاب، وإني لأشارك جدي إعجابه به وإكباره إياه، ومَن لا يفعل؟ يقول في مقدمة الكتاب: «أنا كلما ازددت اطّلاعاً على أخبار عمر زاد إكباري إياه وإعجابي به، ولقد قرأت سِيَر آلاف العظماء من المسلمين وغير المسلمين، فوجدت فيهم من هو عظيم بفكره، ومن هو عظيم ببيانه، ومن هو عظيم بخلقه، ومن هو عظيم بآثاره. ووجدت عمر قد جمع العظمة من أطرافها».

أما مادة الكتاب فتضمها سبعة أبواب تتفرع عنها فصول وعناوين؛ ويبدأ الكتاب بباب موجز عن عمر في الجاهلية، ثم باب عنه مع النبي ﷺ، وفيه فصول عن إسلامه وهجرته وصحبته، ثم باب قصير عنه مع أبي بكر، ثم باب طويل متعدد الفصول عن «عمر أمير المؤمنين» في آخره فصل عن «أوّلياته»، وبعده باب عن «عمر الأديب» فيه فصول عن خطبه وكتبه ومعاهداته ووصاياه وكلماته وعنه مع الشعر والشعراء، وبعده باب عن «عمر الرجل» فيه فصول عن طعامه ولباسه ومركبه وسيرته مع أهله ومع الصحابة ومع الناس، ومنها فصول في مناقبه وإصابة رأيه وفراساته وكراماته، وأخيراً باب عن مقتله فيه عدة فصول.

وقد خُتم الكتاب بجزء عن عبد الله بن عمر كتبه ناجي الطنطاوي ويقع في بضع وثلاثين صفحة، وفيه فصول عن شخصيته وعبادته وزهده وورعه وموقفه في الفتنة وأقواله وكلماته وأسرته وأولاده وأخبار متفرقة عنه.

* * *

رجال من التاريخ

صدر هذا الكتاب ـ أول ما صدر ـ في عام ١٩٥٨ في نحو (٣٠٠) صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤)، وأعيدت طباعته خمس مرات على الأقل. وأضيفت إلى الكتاب تراجم لم تكن قد نُشرت من قبل في طبعاته اللاحقة فبلغ عدد ترجماته في الطبعة السابعة خمساً وخمسين وعدد صفحاته (٤٨٠) صفحة.

فصول هذا الكتاب كانت ـ في الأصل ـ أحاديث دأب علي الطنطاوي على إذاعتها حيناً من إذاعة دمشق منذ نحو نصف قرن، كما قال في مقدمته للطبعة الجديدة من الكتاب: «كل ما في هذا الكتاب بقيةٌ من أحاديث كانت تُذاع لي من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة (أي من وقت كتابة هذه المقدمة في عام ١٩٨٥)، استمرّت إذاعتها أعواماً، تعبت في إعدادها كثيراً، واستمتع بها واستفاد منها ـ من السامعين ـ كثير، بلغت ثلاثمئة حديث أو تزيد، ضاعت فيما ضاع مما كتبت، وأرجو ألّا يضيع عند الله ثوابها إن كتب الله لي ـ بكرمه ـ الثواب عليها».

ثم يقول في المقدمة ذاتها: «وكنت كلما أعددت حديثاً عن رجل من الرجال فتح لي الباب للكلام عن أقرانه وأمثاله؛ فحديثٌ عن صلاح الدين يجرّ إلى آخر عن نور الدين، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك. ولو أني استمررت أحدِّث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة، في كل أسبوع حديثاً، وجاء مئة مثلي يصنعون مثل صنعي، لما نفدت أحاديث

هؤلاء الأبطال العظماء. وأنا لست من المولعين بجمع الكتب ورصّها في الخزائن لأزهى بها وأفخر بكثرتها، ولا أقتني إلا الكتاب الذي أحتاج إليه؛ أرجو النفع به أو المتعة بقراءته، وقد اجتمع لي ـ على هذا ـ في مكتبتي الصغيرة، هنا وفي دمشق، أكثر من تسعين مجلدة في تراجم الرجال والنساء، فلو أن في كل واحدة منها سيرة مئة منهم لكان من ذلك تسعة آلاف من سير العظماء».

وقد أخبرنا جدي كيف كان منهجه في كتابة هذه الفصول فقال: «كنت إذا أردت الحديث عن رجل قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كُتب عنه، وقيّدت في ورقة ما أختار من أخباره، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات. ثم أعمد إلى خبرٍ من هذه الأخبار فأجعله مدخلاً إليها، وأحاول ـ ما استطعت ـ أن أتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي، ويخلص من تخيّل الكاتب في القصة الأدبية، لعلّي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب، فأُوفَّق حيناً، ويجانبني حيناً التوفيق».

ولئن اشتملت هذه الفصول على ترجمات لبعض الأعلام المشهورين (كصلاح الدين ونور الدين وعمر بن عبد العزيز) فإن أكثرها ترجمات لأعلام عظماء لا يعرفهم أو لا يعرف عنهم الكثير أكثر الناس. انظروا ـ مثلاً ـ إلى هذه الأسماء (ومع كلٍّ لقبٌ له جعله جدي عنواناً للترجمة): الحسن البصري (العالم العامل)، قتيبة بن مسلم (فاتح المشرق)، سعيد بن المسيِّب (من ورثة الأنبياء)، أبو حنيفة (الإمام الأعظم)، الليث بن سعد (جمع الدين والدنيا)، أحمد بن حنبل (ناصر السنّة)، البخاري (أمير المؤمنين في الحديث)، أحمد بن أبي دؤاد (العالِم النبيل)، أسد بن الفرات (الفقيه الأميرال)، محمد بن بشير (القاضي المتأنق)، منذر بن سعيد (خطيب الزهراء)، الغزالي (حجة الإسلام)، أورنك زيب (بقية الخلفاء الراشدين)، مظفر بن محمود (الملك الصالح)، العز بن عبد السلام (شيخ من

دمشق)، رضية بنت ألتمش (سلطانة الهند)، علاء الدين الجمالي (مفتي السلطان سليم)، ابن تاشفين (باني مراكش). وفي الكتاب ترجمات لبعض الأدباء والشعراء كأبي دلامة، ومالك بن الريب (شاعر يرثي نفسه)، والزبيدي (شارح القاموس)، وابن عمار (الوزير الشاعر).

وقد ضم الكتاب في طبعته السابعة عدداً من الأعلام المحدثين، وأحسب ـ مما قرأت في أوراق جدي ـ أنها ترجمات كان يعتزم إصدارها في كتاب عنوانه «رجال من دمشق»، ثم عزف عن ذلك وألحقها بهذا الكتاب مع ترجمات أخرى لأعلام قدماء لم تكن قد نُشرت من قبل. وهؤلاء المعاصرون الذين خصَّهم جدّي بفصول في هذا الكتاب هم: الشيخ طاهر الجزائري، والشيخ بدر الدين الحسني، والشيخ علي الدقر، والشيخ محمود ياسين، والشيخ عزيز الخاني، والشيخ كمال الخطيب، والشيخ كامل القصاب، والشيخ بهجة البيطار، والشيخ الكافي، والشيخ عبد المحسن الأسطواني، والشيخ أمجد الزهاوي، وحسن الحكيم (الذي سمّاه: القوي الأمين)، والشاعرة عائشة التيمورية، وأخيراً صديق عمره أنور العطار.

وقد كتب جدي ـ في أول هذا القسم من الكتاب ـ كلمة «توضيح» قال فيها: «كل يوم يمضي يصير تاريخاً، وما مرَّ من فصول هذا الكتاب إنما كان من أخبار «رجال من التاريخ» البعيد، وما سيأتي (مما لم يكن في الطبعات السابقة للكتاب) هو من أخبار «رجال من التاريخ» القريب؛ ضممته إليه، وألحقته به، فكانت هذه الطبعة حاويةً ـ بحمد الله ـ لما ليس في الطبعات السابقة. أسأل الله أن ينفع بها وأن يثيبني عليها». اللهمّ آمين.

* * *

أعلام التاريخ

هذه سلسلة تتألف من سبعة كتيبات من القطع المتوسط (١٤×٢٠)، ويراوح عدد صفحات الكتيب الواحد منها بين أربعين صفحة وستين. وقد ظهرت الطبعة الأولى منها في سنة ١٩٦٠.

في هذه السلسلة سبعة أجزاء هي: عبد الرحمن بن عوف، وعبد الله ابن المبارك، والقاضي شُرَيْك، والإمام النووي، وأحمد بن عرفان الشهيد، والإمام محمد بن عبد الوهاب (وقد أُفرد له آخر جزأين من المجموعة).

تحدث علي الطنطاوي ـ في ذكرياته المنشورة[1] ـ عن هذه السلسلة فقال: «كنت في شتاء ١٩٥٩ أشتغل بسلسلة أعلام التاريخ التي تكلمت فيها عن رجال، منهم من عرف الناس سيرته مجملة ففصّلتُها؛ كعبد الرحمن ابن عوف، ومَن سمع الناس باسمه ولم يعرفه أكثرهم؛ كالقاضي شريك صاحب المناقب التي قلما حوى تاريخ قضاء أمة مثلها، وعبد الله بن المبارك، المليونير الزاهد، والفقيه المحارب العابد، ومنهم من لم يسمع به في بلدنا إلا نفرٍ قليل؛ كأحمد بن عرفان الذي كان عالماً عابداً وكان زعيماً مجاهداً، والذي نازل في الهند الإنكليز والسيخ معاً وأقام دولة تحكم بالإسلام عجز العدو عنها فقضى عليها الجهلةُ من المسلمين العوام. ومنهم الرجل الذي أرجو أن يقرأ سيرته كل عالم وطالب علم، الذي أخلص حياته للعلم وبلغ

---

(١) الجزء السادس، ص٢٧.

أرفع منصب علمي على أيامه، وهو أنه صار مدير الجامعة الكبرى؛ أي شيخ دار الحديث الأشرفية، وهو صاحب «المجموع»؛ أكبر مرجع في فقه الشافعية. أما عرفتموه؟ إنه النووي».

لقد كان من دأب جدي ـ في نحو عام ١٩٥٠ ـ أن يذيع حديثاً عن عَلَم من الأعلام كل أسبوع من إذاعة دمشق كما رأيتم من قبل، والظاهر أنه قد انقطع عن هذا الباب نحو عشر سنين ثم عاد إليه بهذه الكتيبات. ولكنه لم يجعلها ـ في هذه المرة ـ حديثاً موجزاً كما كان شأنه من قبل، بل دراسة متكاملة (في غير تطويل) لا يفرغ منها القارئ إلا وقد أحاط بصاحب الترجمة إحاطة كاملة.

وقد كانت طريقته في تأليف هذه الكتيبات مشابهة لطريقته في إنشاء الفصول التي أودعها كتابه الكبير «رجال من التاريخ»؛ ففي كِلا الحالين كان يَدرُس العَلَم الذي يريد الكتابة عنه ـ كما حدّثنا آنفاً ـ ثم ينتقي من أخباره ما يجعله مدخلاً للحديث عنه، وهو لا يحشد ـ بعد ذلك ـ الأخبار والمرويات بل يقدمها لنا بصورة أدبية جميلة هي وسط بين القصة الأدبية والرواية التاريخية.

ها هو ذا مطلع حديثه عن عبد الرحمن بن عوف: «دجا الليل، فخلت طرق مكة، وانفضّت مجالس قريش من حول الكعبة، وراح السامرون يغشون البيوت، واجتمع في بيت أبي بكر هؤلاء النفر من أصدقائه الذين أخلصوا له الودّ ومحضوه الحب؛ عثمان وسعد والزبير وطلحة وابن مظعون وأبو عبيدة وعبد الرحمن بن عوف. ولكنهم لم يجتمعوا هذه الليلة لحديث يديرونه وليل يمضونه كما يجتمع الأصحاب والأصدقاء، إنما اجتمعوا لأمر جلل دعاهم له أبو بكر. إنه يحمل إليهم خبراً ليس كالأخبار، خبراً لم يسمعوا بمثله قط.. في تلك الساعة وُلد عبد الرحمن ولادة جديدة، كما وُلد بالإسلام كل واحد من الصحابة الكرام من جديد».

وبعض هذه الكتيبات تجاوز حدود الترجمة الشخصية حتى لتحيط ـ على صغرها ـ بموضوع واسع في فقرات معدودات وتقدمه لنا بعرض جلي موجز واضح؛ فالذي يقرأ كتاب «أحمد بن عرفان الشهيد» لا يجد أنه قد تعرف على هذه الشخصية النادرة في تاريخ الهند وتاريخ الإسلام فحسب، بل هو يكاد يلمّ بتاريخ الإسلام في الهند أو بطرف كبير منه في لمحات سريعات بيّنات واضحات، بدءاً بدخول الإسلام إلى الهند وانتشاره فيها، وانتهاء بحركة الجهاد التي قادها أحمد بن عرفان ضد السيخ والإنكليز.

وكذلك الذي يقرأ «القاضي شرُيك»؛ يجد أنه قد تعرف إلى القضاء وفنونه وعرف أصوله ومنزلته في الإسلام. والذي يقرأ كتاب «الإمام النووي» يلمّ بالكثير من مصادر الفقه الشافعي وكتبه؛ مثل «المنهاج» و«الروضة» و«المهذّب» وشرحه العظيم «المجموع»، ويتعرف إلى بعضٍ من أهمّ كتب الحديث ككتاب «الأذكار» و«رياض الصالحين»؛ الكتاب الأشهر في الحديث، ومثله «الأربعون النووية» التي اختارها النووي وصارت أهم وأشهر مختارات الحديث الصحيح، وشرح النووي على صحيح مسلم (قال جدي معلقاً عليه: «وهو كتاب جليل جداً ليس في شروح الحديث ـ بعد شرح البخاري لابن حجر ـ ما هو أكثر منه فوائد وأجزل نفعاً». ثم قال بعد هذا التعليق بصحفات قليلة: «لا أعرف في الشروح أجلّ منه إلا شرح ابن حجر على البخاري»).

* * *

قصص من التاريخ

في هـذا الكتاب ثـلاث وعشرون قصـة نُشـر أكثرها في الثلاثينيات، وهو يقع في ٢٦٠ صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

لعلكم تذكرون ـ حين استعرضنا آثار علي الطنطاوي القديمة ـ كتاباً اسمه «من التاريخ الإسلامي»، ولعلكم أيضاً تذكرون أنني عللت عدم إعادة طبع ذلك الكتاب بأن معظم ما فيه قد ظهر في الكتاب الذي ورثه وعنوانه «قصص من التاريخ»، وهو كتابنا هذا. وهذا ما نقرؤه في حاشيةٍ على مقدمـة الطبعة الثانيـة من الكتاب: «نُشـر هذا الكتاب أول مرة سنة ١٩٣٩ باسم (من التاريخ الإسلامي)، أما القصص فقد كُتب كثير منها ما بين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٦».

وقد حدثنـا جدي ـ في المقدمـة ذاتها ـ عن أسـلوبه في كتابة هذه القصص فقال: «لم تُكتب هذه الفصول في يوم واحد، بل كُتبت في أزمان متباعدات؛ لذلك كان ما ترون من الاختلاف بين أساليبها. وفي بعضها أثرٌ مِن أساليب مَن كنت مولعاً بهم يؤمئذ؛ ففي قصص الحجاج (هجرة معلم، وليلة الوداع، ويوم اللقاء) أثر من أسلوب معروف الأرناؤوط، وفي قصة «عالم» أثر من أسلوب الرافعي، وسائرها مكتوب بأسلوبي».

ثم يتحدث عن منهجـه في هذه القصص: «ولم أتعمد أن أجعلهـا قصصاً كما جاء في عنوان الكتاب، ولم أتقيّد بقيود القصة وأقفْ عند حدودها، بل كنت آخذ الخبر أقعُ عليه فأديره في ذهني وأتصوّر تفاصيله،

ثم أحاول أن أعرضه موسعاً واضحاً، فكان ما أجيء به يقترب من القصة حيناً، ويكون أشبه بالعرض (الريبورتاج) حيناً. وربما غلبت عليّ الرغبة بالتحليل النفسي فأطيل، وربما وقفت عند الحقائق فأقصر. ولو رجعتم إلى أصول هذه الفصول في التاريخ لوجدتم أن أكثرها لا يجاوز بضعة أسطر جاءت متوارية في حاشية من الحواشي أو زاوية من الزوايا، لا يتنبه إليها القارئ ولا يقف عليها»[1].

أما القصص التي حواها الكتاب فهي (كما أشرت قبل قليل ـ ثلاث وعشرون قصة، وهي منتقاة من أزمنة متباينة تمتد ما بين أيام الجاهلية وحتى القرن الماضي؛ ففيها قصص من العصر الجاهلي (النابغة الذبياني)، ومن الطائف في آخر أيام الجاهلية وأول أيام الإسلام (ابن الحب)، ومن الحجاز في أول العصر الأموي (ثلاثون ألف دينار، وعلى أبواب المدينة، وليلة الوداع، ويوم اللقاء)، ومن سمرقند أيام الفتوح الأولى(قضية سمرقند)، ومن الشام في آخر أيام بني أمية فيها (سيدة من بني أمية)، ثم منها في القرن الثامن (في صحن الأموي)، ومن مكة في وسط القرن

---

(١) في الذكريات: ٣/ ٣١٤ لي كتاب اسمه «قصص من التاريخ» كنت آخذ فيه أسطراً معدودة أو حادثة محدودة، فأُعمل فيها خيالي وأجيل فيها قلمي، حتى أجعل منها قصة. فمن هذه القصص ما ذكره المؤرخون: من أن امرأة من دمشق رأت انقسام المسلمين وتقاعسهم عن قتال الصليبيين وأرادت المشاركة في الجهاد، فقصّت ضفائرها وبعثت بها إلى سبط ابن الجوزي، خطيب الجامع الأموي في دمشق، ليكون منها قيد لفرس من خيول المجاهدين. ويقول المؤرخون إنه خطب خطبة عظيمة ألهبت الدماء في العروق وأسالت الدموع من العيون وأيقظت الهمم. فلما كتبت القصة على طريقتي ألّفتُ أنا خطبةً قلت إنها التي ألقاها على الناس. وحسب الناس أن هذه هي الخطبة الحقيقية، حتى أن خطيب المسجد الحرام (الرجل الصالح، الشيخ عبد الله خياط) نقل فقرات منها في خطبة الجمعة على أنها خطبة سبط ابن الجوزي.

الثالث (حكاية الهميان)، ومن بغداد في أيام المأمون (وديعة الله)، ومن فلسطين في أيام صلاح الدين (في بيت المقدس، وهيلانة ولويس)، ومن الأندلس في آخر القرن الخامس (عشية وضحاها)، ثم منها في ساعات الوداع قبيل سقوط غرناطة بيد النصارى في آخر القرن التاسع (آخر أبطال غرناطة)، ثم منها بعد السقوط (محمد الصغير)، وأخيراً ها هي ذي قصة «عالِم» من دمشق في عام ١٨٣١. وفي الكتاب مشهد مسرحي واحد عنوانه «أبو جهل»، ولا أعلم أن جدي كتب نصوصاً مسرحية سواه إلا المسرحيات التي كان ألفها لطلاب المدرستين الأمينية والتجارية[1] من قديم، وهي مسرحيات مدرسية ـ فيما يبدو ـ ولم تُنشر قط.

لقد كُتبت هذه القصص بأسلوب بثّ فيها الحياة حتى ليستدرّ ـ أحياناً ـ الدمع من عين قارئها، وحتى ليخال المرء أنه واحد من أبطالها وشخصياتها، يروح معهم ويجيء، ويألم معهم ويفرح، بل ليكاد يحيا معهم ويموت! إليكم بعضاً من قصة «آخر أبطال غرناطة»: «وانطلقت من أعالي الأسوار أن «لقد عاد موسى»، فتقاذفتها وتناقلتها الآذان، فطارت في أرجاء المدينة وسارت في جوانبها مسير البرق، فبلغت الساحات والدروب وولجت الدور والمنازل، وأوغلت خلال البيوت والسراديب، فلم تلبث أن نفضتها نفضاً فألقت بأهليها إلى الأزقة والشوراع، فإذا هي ممتلئة بالناس من كل جنس وسن ومنزلة. . . ووصل موسى، ذلك البطل البدري الذي أخطأ طريقه في الزمان فلم يأتِ في سنوات الهجرة الأولى، بل جاء في الأواخر من القرن التاسع، ولم يطلع في الحجاز التي كانت تبتدئ تاريخها

---

(١) قال عنها في بعض أوراقه المخطوطة: ألّفتُ ستَّ مسرحيات مثلتْها فرقتا المدرسة الأمينية والمدرسة التجارية في دمشق ما بين سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٣٠، وكان يحضرها جمهور كبير، وكان الدخول لمشاهدة بعضها بثمن، وكانت ـ في حينها ـ حديث المجالس في دمشق.

بل في الأندلس التي كانت تختتم تاريخها. ونظر موسى حوله.. ورأى الناسُ في عيني البطل دمعة تترقرق، وفتح فمه فحبس الناسُ أنفاسَهم. فإذا هو يعلن النبأ المهول: لقد سلَّم أبو عبد الله الصغير مفاتيح غرناطة!... ولم يعد يطيق موسى أكثر من ذلك، فلكز فرسه، وانطلق إلى حيث لا يدري أحد كما جاء من حيث لم يدرِ أحد».

* * *

حكايات من التاريخ

سلسلة تتألف من سبع حكايات صغيرة يقع كل منها في بضع وأربعين صحفة من القطع الصغير (١٧×١٢)، وقد ظهرت الطبعة الأولى منها في سنة ١٩٦٠ .

هذه الحكايـات مشـابهة في فكرتها ومنهج كتابتهـا للقصص التي رأيناها في الكتاب السـابق، غير أن تلك كانـت «قصصاً» للكبـار وهذه «حكايات» للصغار . قال جدي عنها في مقدمتها (وهي مقدمة تكررت في كل واحدة من الحكايات) : هذه «حكايات من التاريخ» . ومن منا لا يحب الحكايات؟ ومن لا يذكر أياماً من حياته كان يسعى فيها إلى جدته العجوز يسألها حكاية، فتتعلّل هي ويتوسل هو، حتى إذا استجابت وبدأت بالفاتحة التي لا بد منها لكل حكاية : «كان يا ما كان، كان في قديم الزمان. . . » تجمّع وتحفّز، وصارت كل جارحة من جسده أذناً تصغي وقلباً يعي. . . ويكبر الطفل، ولكن الحنين إلى الحكايات والقصص يكبر معه . لذلك استجبت مسروراً لمّا كلفتني (دار الفكر) بأن أتولى كتابة هذه السلسلة من الحكايات . إنها حكايات ولكنها تاريخية واقعة . وليس معنى هذا أني أفتح كتاب التاريخ وأنقل ما فيه، ولكن معناه أني آخذ الخبر التاريخي، أو الواقعة المروية، فأخرجها إخراجاً فنياً . وربما زدت فيها قليلاً أو كثيراً، وربما كان أصلها سطوراً معدودة فجعلتها صفحات . ولكني لا أخرج ـ في جوهر القصة ـ عن الأصل على كل حال . وإذا كانت الجدة تجد الحرج والضيق كلما سألها الصبي حكاية جديدة فذلك لأن حكاياتها قليلة لا تعرف غيرها، أما أنا فلن أضيق لأن لديّ فيضاً لا ينقطع من هذه الحكايات» .

والظاهر أنه كتبها للأطفال في آخر المرحلة الابتدائية، فهو يختم المقدمة السابقة بالقول: «وسأعرض هذه الحكايات بأسهل لفظ وأقرب عبارة؛ حتى يفهمها تلميذ الصف الرابع الابتدائي». والناشر نفسه قد صنفها في الكتب الموجهة لهذه السن (فكتب على غلافها إنها للناشئين، أبناء ١٠ ـ ١٢)، ولكن لا شك في أن لغتها قوية بحيث يمكن لطالب الإعدادية والثانوية أن يقرأها مستمتعاً بها مستغرقاً فيها، بل إن ذلك ليس ببعيد حتى على الكبار.

وهي سبعٌ: «جابر عثرات الكرام»، و«المجرم ومدير الشرطة»، و«التاجر والقائد» و«التاجر الخراساني»، و«قصة الأخوين»، و«وزارة بعنقود عنب»، و«ابن الوزير».

* * *

دمشــق

يقع هـذا الكتـاب في ١٦٠ صفحـة من القَطْع المعتـاد (١٧×٢٤)، وفيه تسع عشرة مقالة كتبت بين عامي ١٩٣١ و١٩٦٤ . وفي الكتاب بعض الصور القديمـة لمدينـة دمشق .

الاسم الكامل لهذا الكتاب هو : «دمشق : صور من جمالها، وعبر من نضالها»، وهو اسم يوحي بأن مقالات الكتاب وصفية أو تاريخية . والحقيقة أن فيها من ذلك الكثير، ومن أجل ذلك اخترت أن أصنفه في هذه المجموعة التي سميتها «التاريخيات» . ولكنني أعترف أنني لم أصنع ذلك بداهة؛ بل لقد حرت وترددت، فوضعته مرة مع «الأدبيات»، ثم هممت ـ أخـرى ـ أن أضعه مع «الذكريـات»؛ والذي حملني على هـذا التـردد أن في الكتـاب صوراً من الأدب تبعد عن التـاريخ، وفيضـاً من المشاعر والأحاسيس هي أقرب إلى «حديث النفس» . ومن قرأ الكتاب وجد الشاهد على ما أقول .

بـل إن في الكتاب فصولاً من الذكريـات، مثل مقالـة «سـاقية في دمشق»، وفيها أشتات من ذكريات الدراسة في الكتّاب، و«مكتب عنبر»، وهي ـ في الأصل ـ مقدمةٌ كتبها جدي لكتاب أصدره ظافر القاسمي عن مكتب عنبر سنة ١٩٦٣ . ومكتب عنبر هو اسم المدرسة الثانوية التي درس فيها جدي والتي كان لها أثر كبير في حياته (كما علمتم من قراءة القسم الأول من هذا الكتاب) ولذلك لم يكن غريباً أن تثير كتابة هذه المقدمة

مشاعره وأن توقظ ذكرياته، فنجده قد استرسل ـ فيها ـ في هذه الذكريات وهو يقول مخاطباً مؤلف الكتاب: «لقد حركتَ سواكن نفسي، وبعثت لي ذكريات أمسي، وهززتني هزاً، حتى لقد أحسستُ كأن قد عادت لي مواضي أيامي. وهل تعود الأيام الماضيات؟ لقد كان عهد مكتب عنبر جنتي التي خرجت منها ثم لم أعُد إليها، فرجَعْتَني إليها ـ يا أخي ظافر ـ بكتابك، أطير من فوق أسوارها العالية وأبوابها الموصدة بجناحين من ذكرى وخيال، حتى أدخلها مرة ثانية، فأعيش فيها في حلم ممتع فتّان».

وفي بعض المقالات صور أدبية تاريخية نكاد نحسّ، ونحن نقرؤها، أننا نعيش في دمشق في بعض أيامها القديمة؛ مثل مقالة «العيد في دمشق»، وفيها وصف للعيد في بيوت دمشق وأحيائها في مطلع هذا القرن، و«دمشق التي عرفتها وأنا صغير»، وقد نُشرت عام ١٩٦٠ وفيها يقول جدي: «إن موضوعي اليوم ملامح من دمشق قبل خمسين سنة، جلاَّها لعيني وأعاد صورتها إلى نفسي وقوفي أمس على الدار التي كنا نسكنها في تلك الأيام». ثم يمضي بنا في وصفٍ دقيق لحياة الناس في تلك الأيام؛ كيف كانوا يسكنون وينامون ويقومون ويأكلون ويشربون، وكيف كانت العلاقات الاجتماعية بين الناس وكيف كان الرجال وكيف كانت النساء، فلا نفرغ من قراءة المقالة حتى نظن أننا كنا في رحلة إلى ذلك الزمان، ثم ننتبه عليه وهو يقول: «وما أدري ـ بعد ـ ما وقع هذه الصورة في نفوسكم، ولكن الذي أدريه أن هذه هي ملامح عن دمشق التي عرفتها وأنا طفل من نحو خمسين سنة، فانظروا إلى أين مشينا في هذه السنين الخمسين!».

وفي كثير من مقالات الكتاب تصوير أدبي لواقع تاريخي؛ مثل مقالة «كارثة دمشق» التي نشرها عام ١٩٤١ وفيها خبر ضرب دمشق، بالقنابل في تلك السنة، ومقالة «إلى دمشق بلدي الحبيب» التي كتبها في الثامن من آذار (مارس) عام ١٩٣٥ وفي أولها: «في هذا اليوم، ٨ آذار،

وُلد الاستقلال السوري الذي عاش عامين ثم مات في «ميسلون». ومن هذا الباب مقالات تتحدث عن مراحل من الجهاد والنضال سبقت استقلال الشام وجلاء الفرنسيين عنها، ومنها: «أطفال دمشق» و«مقدمة كتاب عن دمشق»، وهي تُختتم بمقالتي: «دموع ودموع» و«الجلاء عن دمشق» اللتين نُشرتا عقب الجلاء في عام ١٩٤٥.

وفي مقالَتي «حي الصالحية» و«منشىء حي المهاجرين في دمشق» نقرأ أطرافاً من تاريخ المدينة؛ ففي الأولى تاريخ مفصل لهذا الحي من أحياء دمشق من يوم استوطنه آل قدامة (أسرة الفقهاء الحنابلة المشهورة، ومنهم الموفق صاحب المغني؛ أوسع كتب المذهب) حين التجؤوا إلى دمشق هرباً من الصليبيين في فلسطين، وفي الثانية تاريخ مفصل لحي «المهاجرين» الذي لم يكن شيئاً في أول القرن الهجري الماضي ثم استحال واحداً من أفضل أحياء دمشق في آخره، وفي المقالة ـ أيضاً ـ استعراض موجز لأعمال عدد من متأخري الولاة العثمانيين في دمشق.

أما بقية مقالات الكتاب فتكاد تقتصر على وصف دمشق، فكأنها هي التي استحق الكتاب ـ من أجلها ـ أن يُضاف إلى اسمه: «صور من جمالها» كما استحق ـ لأجل المقالات السابقة ـ أن يُضاف إليه «عِبَر من نضالها». ومن هذه المقالات مقالة «هذي دمشق»، وفيها وصف للمدينة يحس القارئ ـ معه ـ أنه زارها وتنقل في شوارعها وبين أحيائها وجال على أهم معالمها، ومنها مقالة «نهر دمشق» التي يصف فيها المؤلف «بردى»، ومقالة «الجادة الخامسة في دمشق»، ومقالة «على سفوح جبل الشيخ»، وهي من أواخر ما ألف من مقالات الكتاب، وقد نُشرت سنة ١٩٦٤.

* * *

الجامع الأموي

يقع هذا الكتاب في نحو تسعين صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤)، وهو ـ بهذا ـ أصغر كتب الشيخ حجماً. وقد ظهرت طبعته الأولي في عام ١٩٦٠.

الاسم الكامل لهذا الكتاب هو: «الجامع الأموي في دمشق: وصف وتاريخ»، وهو ـ كما قلت ـ أصغر كتاب من كتب علي الطنطاوي. والحقيقة أنه ليس الكتاب الذي أراد جدي كتابته عن الأموي؛ بل هو خلاصة ذلك الكتاب الذي لم يُكتَب أبداً، والذي لو كُتب لكان أوسع وأكمل مرجع عن الجامع الأموي بالشام يُكتب أبداً. فما هي قصة هذا العمل الذي لم يتم؟.

الجواب في المقدمة التي كتبها جدي لهذا الكتاب قبل أربعين عاماً: «اتصل بالجامع الأموي حبلي لما كنت في المدرسة الجقمقية، وأولعت ـ من تلك الأيام ـ بأن أنقل كل خبر أجده عن الأموي، واستمر ذلك أكثر من أربعين سنة، من تلك الأيام إلى الآن، فاجتمع لي من الأوراق والجذاذات والمذكرات ما يملأ درجاً كبيراً. وكنت كلما عزمت على تصفيته وإخراجه في كتاب تعاظمني الأمر فتهيّبتُه. وقد جمعت كل ما وجدته عنه في «ابن عساكر»[١]، و«الدارس»[٢]، و«مسالك الأبصار»[٣]، و«البداية

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر، وقد يكون المقصود مختصره الذي هذبه الشيخ عبد القادر بدران وطبعت منه سبعة أجزاء.

(٢) واسمه الدارس في أخبار المدارس، عن مدارس دمشق، لابن حِجّي.

(٣) واسمه: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قال صاحب كشف الظنون إنه=

والنهاية»[1]، و«الروضتين»[2] وذيله، و«شذرات الذهب»[3]، و«معجم البلدان»[4]، و«النجوم الزاهرة»[5]، وتاريخ ابن القلانسي[6]، و«السلوك»[7] للمقريزي، وكتب ابن طولون[8]، وما كتبه القاسمي[9] وبدران[10]، ورأيت بعض الرسائل المخطوطة، وكتباً أخرى لا أريد الآن

= في عشرين مجلداً، وقال الزركلي في «الأعلام» إن المجلد الأول منه طبع وسائره مخطوط، وهو لابن فضل الله العمري؛ من مؤرخي القرن الثامن.

(١) التاريخ المعروف لابن كثير، وقد عاش في دمشق وتوفي بها عام ٧٧٤هـ.

(٢) وهو كتاب الروضتين في أخبار الدولتين الصلاحية والنورية، لأبي شامة، وذيل الروضتين له كذلك.

(٣) اسمه الكامل «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، لابن العماد الحنبلي، وهو فقيه مؤرخ وُلد في الصالحية بدمشق ومات بمكة حاجّاً سنة ١٠٨٩هـ.

(٤) المشهور، لياقوت الحموي.

(٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تَغْري بَرْدي.

(٦) لعله ذيل تاريخ دمشق لحمزة بن أسد المشهور بابن القلانسي.

(٧) وهو: السلوك في معرفة دول الملوك، طُبع منه قسم وأكثره ما زال مخطوطاً.

(٨) هو محمد بن علي، مؤرخ عالم بالتراجم من أهل الصالحية بدمشق. من كتبه: ملخص تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى ما في دمشق من الجوامع والمدارس للنعيمي (مخطوط)، والقلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية.

(٩) لا أعلم أيريد بالقاسمي الشيخ جمال الدين (صاحب التفسير) أم أباه، ولكليهما كتب عن الشام؛ فللشيخ جمال الدين: تعطير المشام في مآثر دمشق الشام (في أربعة مجلدات، لم يطبع)، ولأبيه كتب منها: تنقيح الحوادث اليومية (نُشر باسم: حوادث دمشق اليومية)، وقاموس الصناعات الشامية.

(١٠) هو الشيخ عبد القادر بدران، فقيه حنبلي وُلد في دومة بقرب دمشق وعاش وتوفي بدمشق. قال صاحب «الأعلام» إنه انصرف مدة إلى البحث عمّا بقي من الآثار في مباني دمشق القديمة، فكان أحياناً يحمل سلماً وينقله بيديه ليقرأ كتابة على جدار أو اسماً فوق باب. من كتبه: تهذيب تاريخ ابن عساكر، والآثار الدمشقية والمعاهد العلمية (لم يطبع)، ومنادمة الأطلال ومسامرة الخيال.

إحصاءها. وكنت كلما تقادم العهد ازدادت هذه الأوراق كثرة، وازددت لها تهيّباً. . . فلما طلبتْ مني المديرية العامة للأوقاف أن أكتب شيئاً عن الأموي يكون كالدليل للسائح استخرجتُ منها هذه الخلاصة التي أقدمها اليوم، ولم أعزُ كل خبر فيها اعتماداً على أني سأخرج ـ إن شاء الله ـ الكتاب الكبير عن الأموي وكل خبر فيه معزوٌّ إلى مصدره».

كتب جدي ذلك في مقدمة الطبعة الأولى في سنة ١٩٦٠، ثم عاد في مقدمة الطبعة الثانية بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً فقال: «كتبت مقدمة الطبعة الأولى في دمشق سنة ١٩٦٠، ومكتبتي أمامي وأوراقي تحت يدي. وأكتب هذه المقدمة في مكة المكرمة سنة ١٩٨٩ وقد بعُدت المكتبة عني، وضاعت الأوراق مني، والدرج الذي أودعته أخبار الأموي لم أعد أعرف ما فعل الله به ولا بما كان فيه من أوراق، ولم أعد استطيع أن أعوضه. ومن أين لي أن أعود إلى الكتب التي طالعتها، والسنين الطويلة التي أمضيتها أتتبع أخبار الأموي من صفحات الكتب ومن أفواه العلماء، وكلما وجدت خبراً نقلته وذكرت من أين أخذته أو ممن سمعته؟. . وكنت أؤمل أن أجعل منها كتاباً كبيراً عن الأموي، فضاع الأمل ولم يبقَ غير هذا المختصر».

على أن في هذا الكتاب ـ على قصره ـ وصفاً وافياً وتأريخاً شافياً لمن أراد أن يقف على الأموي وصفاً وتأريخاً؛ ففي أوله وصف عام للجامع في ثلاثة فصول: «جولة في الأموي» و«في صحن الأموي» و«في الحرم». وفي هذه الفصول وصف لسور الجامع ومداخله وبواباته، ثم الصحن بقبابه وبلاط أرضيته، ثم حرم الجامع (أي الجزء المسقوف منه) بمنبره ومحاريبه الأربعة؛ محراب لكل مذهب من المذاهب!.

وبعد ذلك سبعة فصول تستعرض تاريخ الجامع من يوم أُنشئ إلى زماننا الحاضر؛ وهي «عمارة الأموي»، وفيه أخبار بنائه الأول، و«أطوار الأموي وأحداثه» و«من أخبار الأموي»، وفيهما ذكر ما مر بالأموي من

حرائق وزلازل وما أُجري عليه من إصلاحات في القبة والمآذن، و«الأموي في أواخر القرن السادس الهجري»، وفيه وصف تفصيلي للأموي في ذلك الوقت نقله جدّي عن ابن جبير، الرحالة المشهور، و«الحريق الأخير»، وفيه قصة حريق الجامع سنة ١٣١١هـ، وأخيراً فصل عنوانه «الإصلاحات الجديدة»، وهو تقرير حصل عليه المؤلف من مهندس الأوقاف يومئذٍ، مكين المؤيد.

* * *

الذّكريات

ما أرانا وصلنا إلى هذا الموضع من الكتاب إلا وأنتم تعرفون مبلغ ما شهد الشيخ علي الطنطاوي من تبدل الأحوال وتغير الدول، ومبلغ ما كان له من مشاركة في الوقائع والأحداث تأثيراً وتحريكاً، فأين يذهب بهذا كله إن لم يودعه سِفر الذكريات؟.

لقد فتح عينيه على الدنيا يوم لم تكن في بلاد العرب والمسلمين كلها سيارة ولا طيارة، وأغمضهما بعد ما رأى بعض أبناء أبينا آدم يمشون على سطح القمر. ودرج أولَ سني حياته وما في الشام كلها بيت فيه كهرباء، ثم أدرك وقتاً لا يكاد يحتمل المرء فيه العيش ساعة بلا كهرباء. ودخل المدرسة والدولة للترك والتعليم بلسانهم، فما ترك الدراسة إلا وقد رأى دولتهم تدول وأخرى تعقبها لا تعيش إلا لماماً، ثم يحكم الفرنسيون الشام ويقتسمون ـ مع الإنكليز ـ معظم أراضي المسلمين. ثم عاش حتى رأى هؤلاء وأولئك يتركون هذه البلاد جميعاً، وكم رأى بعد ذلك من تبدل العهود وتغير الدول.

وخلال سني حياته ولدت الشيوعية وماتت الشيوعية، وولدت دول وماتت دول! (أذكر أنه حدثنا مرة عن أيامه في المدرسة الابتدائية، فكان مما حدثنا به أن مدرس الجغرافية دخل الفصل في يوم من أواخر أيام سنة ١٩١٨ فقال للطلاب إن دولة قد ولدت في ذلك اليوم واسمها أصعب من أن يُحفظ. ثم لقنهم ذلك الاسم فإذا بها تشيكوسلوفاكيا! وعاش من بعد حتى رأى يوماً ماتت فيه هذه الدولة فجأة كما ولدت فجأة، وخلفت من

ورائها دولتين وليدتين: تشيكيا وسلوفاكيا).

لقد بدأ الشيخ علي الطنطاوي بتدوين بعض ما مر به من أحداث منذ كان شاباً، فسرد علينا ـ في كتابات مبكرة ـ تفصيلات عن رحلته إلى الحجاز، وحدثنا عن كثير مما رآه وعاشه في الشام والعراق، وبعد ذلك روى لنا تفصيلات عن رحلته إلى الشرق داعياً لفلسطين. ثم انتهى به الأمل كهلاً ـ إلى تدوين ذكريات نصف قرن، وصار هذا الأمل حلماً عاشه حيناً من الدهر حتى أذن الله فولدت «ذكريات علي الطنطاوي»، التي لبث ينشرها في الصحف خمس سنين ثم طُبعت في ثمانية أجزاء، فجاءت من أعاجيب كتب الذكريات في هذا الزمان وجاءت شهادة المطّلع الخبير على القرن.

وإلى التفاصيل.

* * *

من حديث النفس

في هذا الكتاب ست وثلاثون مقالة مما كتبه علي الطنطاوي بين عامي ١٩٣١ و١٩٥٩، وقد نُشر عام ١٩٦٠، وهو يقع في ٢٣٦ صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

ليس غريباً أن نجد أن نحو نصف مقالات هذا الكتاب قد كتبها صاحبها في عقد الثلاثينيات، وأن أقدمها قد نُشرت في عام ١٩٣١؛ فنحن نجده ـ في تلك المرحلة من حياته ـ في توثب لا يفتُرُ وهمّةٍ لا تنِي، وإن المشاعر لتضطرم في نفسه حتى ما يطيق حملها فيبثّها في ثنايا الصفحات وينشرها عبر سطور المقالات. ها هو ذا يعرض ـ في عام ١٩٣٣ ـ شهادته الجامعية للبيع: «... فيا أيها القراء الكرام، إني أعرض شهادتي ولقبي الكريم للبيع برأس المال (الرسوم والأقساط)، أما فوسفور دماغي، وأيام عمري، فلا أريد لشيء منه بديلاً، وأجري على الله. فمَن يشتري؟ شهادة بيضاء ناصعة كبيرة، خطها جميل، ذات إطار بديع. جديدة (طازة)! مَن يشتري؟!». وها هو ذا ينعى عيده في مقالة «عيدي الذي فقدته» فيقول: «يا آنسين بالعيد، يا فرحين به! هل تسمعون حديث رجل أضاع عيده، وقد كانت لكم أعياد؟ أم يؤذيكم طيف الشجى إذ يمرّ بأحلام أفراحكم الضاحكة؟». وفي «زفرة مصدور»: «ما أضْيَعَ أيامي في مدرسة الحياة إن كان هذا كلَّ ما تعلمت منها في ثلاثين سنة! اللهمّ إني قد نفضت يدي من الناس، وإني أسألك أمراً واحداً؛ ألّا تقطعني عنك، وأن تدلّني عليك، حتى أجد ـ بمراقبتك ـ أنس الدنيا وسعادة الآخرة». وفي (زفرة أخرى):

«. . . ولكني كرهت أن أتوكأ في سيري إلى غايتي على غير أدبي، ونزّهت نفسي عن أن أجعل عمادي ورقة صار يحملها الغبي والعيي والجاهل واللص الذي يسرق مباحث الناس ويسطو على آثارهم. . . لقد صرت كالعجوز الذي حَطَمه الدهر وفجعه في أولاده فسيّره في مواكب وداعهم الباكية. وما أولادي إلا أمانيَّ، وما قبور الأماني إلا القلوب اليائسة. فيا رحمة الله على تلك الأماني!».

وفي الكتاب مقالات يصف فيها علي الطنطاوي نفسه أو يعبّر عن عوطفه وانفعالاته، كما صنع قبل قليل في «زفرة مصدور» و«زفرة أخرى»، وكما في مقالات: «الوحدة» و«الشفاء» و«وقفة على طلل» و«صورة المؤلف بقلمه».

وفي الكتاب أشتات من الذكريات؛ من ذكريات الطفولة المبكرة أو من ذكريات الشباب، كما في مقالات: «من دموع القلب» و«في الكُتّاب» و«في معهد الحقوق» و«إلى حلبون» و«ذكريات» و«من التعليم إلى القضاء» و«قصة معلم»، وفي هذه المقالة يصف علي الطنطاوي نفسه حين صار معلماً في المدارس الابتدائية، وقد قدم هذا الوصف من خلال حوار خيالي: «قلت لصديق لي أديب: إني لأقرأ لك منذ عشر سنوات، فما رأيتك أسففت إسفافك في هذه الأيام، وإني لأشك أأنت تكتب ما تكتبه أم يجري به قلمك وأنت نائم فتأخذه فتضع عليه اسمك؟ فماذا عراك ـ أيها الصديق ـ فأضاع بلاغتك ومحا آيتك؟ قال: دعني يا فلان، دعني؛ فإن سراج حياتي يخبو وشمعتي تذوب، وما أخالني إلّا ميتاً عمّا قريب أو دائراً في الأسواق مجنوناً. إنني انتهيت. . بعت رأسي وقلبي برغيف من الخبز».

وفي مقالة «مما حدث لي»: «جاءني مرة (وكنت في عنفوان الشباب، أكتب في أوائل كتابتي في «الرسالة» عام ١٩٣٣) ثلاثة من الغرباء عن البلد، لم يعجبني شكلهم ولم يطربني قولهم، فوقفت على الباب أنظر إليهم فأرى

الشكل يدلّ على أنهم (غلاظ)، وينظرون إليّ فيرون فيّ (ولداً)، فقالوا: هذه دار فضيلة الشيخ الطنطاوي؟ قلت كارهاً: نعم. فقالوا: الوالد هنا؟ قلت: لا. قالوا: أين نلقاه؟ قلت: في مقبرة الدحداح. قالوا: يزور أمواته؟ قلت: لا. قالوا: إذن؟ قلت: هو الذي يُزار. فصرخ أحدهم في وجهي صرخة أرعبتني وقال: مات؟! كيف مات؟ قلت: جاء أجله فمات. قالوا: عظّم الله أجركم، إنّا لله وإنّا إليه راجعون. يا خسارة الأدب! قلت: إن والدي كان من أجلّ أهل العلم ولكن لم يكن أديباً. قالوا: مسكين! أنت لا تعرف أباك. وانصرفوا، وأغلقت الباب وطفقت أضحك وحدي مثل المجانين»!.

وإليكم ـ أخيراً ـ هذه الصورة المفصلة من صور الذكريات. في عام ١٩٥٩: ورد على جدي كتاب تشكو فيه أمٌّ لطفلين ضيقَ ذات اليد، فواساها بمقالة عنوانها: «جواب على كتاب»، وهذا بعض ما جاء في الجواب: «أحسب أن هذه الكلمة تبدو غريبة؛ لأن الأدباء ما تعوّدوا أن يقولوا للناس مثلها.. إنها قصة ولكن لم يخترعها خيال كاتب، ولم يؤلفها قلم أديب، بل ألفت فصولَها الحياةُ وجئت أرويها كما كانت. واسمعي الآن القصة: كان في دمشق ـ من نحو أربعين سنة ـ عالِم جليل القدر كريم اليد موفور الرزق، داره مفتوحة للأقرباء والضيوف وطلبة العلم وموائده ممدودة، وكان من ذوي المناصب الكبار والمكانة في الناس. ونشأ أولاده في هذا البيت؛ لا يعرفون ذلّ الحاجة ولا لذعة الفقر، ولكنهم أصبحوا يوماً من أيام سنة ١٩٢٥ (الولد الكبير البالغ من عمره ستّ عشرة سنة وإخوة له تتراوح أعمارهم بين عشر وبين شهر) فإذا بالوالد قد توفي. وارتفع الستر، فإذا التركة ديون للناس، فباعوا أثاث الدار كله ليوفوا الدين، ثم تركوا الدار الفسيحة في الصالحية ونزلوا ـ تحت الرصاص، وكانت أيام الثورة ـ يفتشون عن دار يستأجرونها. فوجدوا داراً.. أعني كوخاً.. زريبة بهائم؛ مخزن تبن في حارة الديمجية. هل سمعتِ بها؟

هنالك على أربعة فرش مبسوطات على الأرض متجاورات، ما تحتهنّ سرير، كان ينام هؤلاء الأولاد، الذين رُبّوا في النعيم وغُذوا بلبان الدلال، تسهر عليهم أم مثلك...». أيها القراء، سأقطع القصة! وددت لو لم أفعل، وإنها لتستذرف دمع العين، وإنها لتغري بالمضي بها حتى آخرها، ولكن يضيق عنها هذا المقام، فاذهبوا فاقرؤوا تتمتها في الكتاب.

* * *

من نفحات الحرم

في هذا الكتاب مقالات نُشرت (أو كُتبت ولم تُنشر) بين عامي ١٩٣٥ و١٩٦٥ . وقد صدر في طبعته الأولى عام ١٩٦٠ ثم أعيد طبعه عام ١٩٨٠ مع إضافات. وهو يقع في ١٤٢ صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

الكتاب يضم نوعين من المقالات؛ الأول تلك التي كتبها علي الطنطاوي ونشرها بعد عودته من رحلة الحجاز الشهيرة التي سيأتي خبرها، والنوع الثاني مقالات ذات علاقة بالحرم أو الحج. ولست أستغرب أن يجمع هذه المقالات جميعاً كتاب عنوانه: «من نفحات الحرم»، ولكن لو كان الأمر إليّ لما جعلته بالترتيب الذي صدر به. فقد بدأ الكتاب بمقالة نُشرت في عام ١٩٥٦ وعنوانها: «الصلات الروحية بين سورية والمملكة العربية السعودية»، وبعدها «وقفة على العقيق»، وهي مقالة مقتطعة من ذكريات الرحلة وإن تكن خارج سياقها؛ إذ هي قطعة أدبية تاريخية استوحاها صاحبها من وقوفه بالعقيق في ليلة من ليالي رحلته، وما هي بسرد لأحداث تلك الرحلة. ثم «في البقيع»، وهي - كسابقتها - قطعة أدبية استوحاها جدي من وقوفه على البقيع في الرحلة ذاتها. ثم نجد قطعة من ذكريات الرحلة في مقالة «من المدينة إلى مكة» وبعدها مقالة «المنزل الأول للبشر» التي نشرت عام ١٩٦٥، ثم «من ذكريات الحج»، وقد نشرت عام ١٩٥٥، ثم ثلاث مقالات نشرت عام ١٩٣٥، وهي «عرفات» و«في ساحة الإعدام» و«الشريف عدنان»، وأخيراً ذكريات الرحلة في عدد من المقالات التي نشرت ١٩٣٥، وفي آخرها مقالة عن «المدينة» لم تنشَر

ولم تُذَع قبل نشر هذا الكتاب، وقد كُتبت ـ فيما يبدو ـ سنة ١٩٥٦ . وقد خُتم الكتاب بفصل عنوانه: «من المدينة إلى تبوك» فيه وصف لطريق العودة مع نتف من ذكريات الرحلة.

وما أدري ما الذي حمل جدي على بعثرة ذكريات الرحلة وتقطيع أوصالها بهذا الشكل! ولو كان إليّ أمر ترتيب هذا الكتاب لكنت فصَلت الرحلة عن سواها من المقالات؛ فأبدأ بفصل «إلى أرض النبوة»، ثم «من المدينة إلى مكة» ثم «في ساحة الإعدام»، ثم «من المدينة إلى تبوك»، وهذه الفصول تستغرق أكثر من نصف الكتاب بقليل.

أما هذه الرحلة التي كُتبت عنها (أو أثناءها) أكثر مقالات الكتاب فهي رحلة الحجاز التي مرّ بكم خبرها في آخر صفحة من القسم الأول من هذا الكتاب؛ وكانت الرحلةَ الأولى لكشف طريق الحجِ البري بين دمشق ومكة، وقد حفلت ـ كما قلت عنها سابقاً ـ بالغرائب وحفَت بها المخاطر. والذي يقرأ وصف هذه الرحلة لا يجد فيها متعة قراءة القصة الغريبة فحسب، بل إن فيها كثيراً من الفوائد والمعلومات التي لا نكاد نجدها في بطون الكتب عن الصحراء والحياة في البادية، وفيها صورة أدبية دقيقة عن تبوك والقريات قبل ثلثي قرن لا تكاد توجد في أي مرجع آخر، ووصف لمكة والمدينة في تلك الأيام، وفيها حديث عن عادات الناس في طعامهم وشرابهم وضيافتهم وبعض ذلك مما فوجئ به علي الطنطاوي (الشاب ـ يومئذٍ ـ القادمَ من الشام): «ما كاد يستقر بنا المجلس حتى أقبل العبيد، فمدّوا سماطاً على الأرض ووضعوا عليه قصعة هائلة كان يحملها اثنان منهم، وقد مُلئت رزّاً وأُلقي فوقه خروف كامل بيديه ورجليه ورأسه.. وكان الخروف مفتوح العينين، ناعس الطرف، فأخذتني الشفقة عليه وتوهمت أنه ينظر إلينا وأنه.. ثم رأيت أن لا مجال للوهم ولا للخيال، وأن الوقت لا يتسع للأدب؛ لأن القوم أحدقوا بالقصعة وشمروا عن سواعدهم، فخشيت أن يذهبوا بالرز واللحم ويبقى لي الخيال والوهم!».

وعودة إلى مقالات الكتاب الأخرى: في يوم الحج سنة ١٩٥٥ أذاع جدي مقالة «ذكريات الحج» (وأحسبه أذاعها من إذاعة دمشق، وإن لم يصرِّح بذلك في المقالة المنشورة في الكتاب)، وفيها يتذكّر أيام حجته قبل ذلك بعشرين سنة: «يا أيها السامعون والسامعات، إنه ليس الخبر كالعيان، وأنا ـ مهما أوتيت من البيان ـ لا أستطيع أن أصف لكم ما يحسّ به الحاج عندما يقف على باب الحرم ويرى الكعبة لأول مرة»، وفي آخر المقالة: «إنه المؤتمر الإسلامي الأكبر. أسأل الله أن يكتبه لمن لم ينعم به منكم، وأن يجعل لي ولمن حجّ معاداً إليه».

وفي الكتاب أمثال لهذه المقالة مما تغلب عليه عواطف الحج ومشاعره وأفكاره، ومنها مقالات «عرفات» و«في البقيع» و«المدينة» و«الصِّلات الروحية بين سورية والمملكة العربية السعودية». أما مقالة الشريف عدنان فليست من هذا الباب ولا علاقة لها بمادة هذا الكتاب سوى أنها كُتبت في مكة في تلك الرحلة، وقد كتبها علي الطنطاوي ـ كما يقول فيها ـ حين تسلّم وهو في فندقه بمكة عدداً من مجلة «الرسالة» وفيه خبر تحويل مسجد «آيا صوفيا» إلى متحف، فجعل المقالة عن هذا المسجد العظيم، وقد اتفق أن الفندق الذي كان ينزل فيه في مكة كان فيما مضى من الزمان قصراً للشريف عدنان، فورّى ـ في المقالة ـ به وختمها بقوله: «أيها (الشريف عدنان)[1]، لا تغترّ، وقد ورثنا القصر وورثت القبر، وهدمنا ما بنيت وبنينا ما هدمت، وما هدمتَ ـ إذ هدمت ـ إلا مجدك في التاريخ، وأجرك في الآخرة!».

* * *

(١) قال في الحاشية: المراد به هنا أتاتورك، ولكن لجأنا إلى التعريض يوم لم نستطع التصريح.

بغداد
مشاهَدات وذكريات

في هذا الكتاب تسع عشرة مقالة نُشر أكثرها بين عامي ١٩٣٦ و١٩٤٧، وهو يقع في ١٥٣ صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

ذهب الشيخ علي الطنطاوي إلى العراق في عام ١٩٣٦ كما تذكرون من قراءة القسم الأول من هذا الكتاب. وقد درّس ـ أولاً ـ في الثانوية المركزية في بغداد، ثم في ثانويتها الغربية ودار العلوم الشرعية في الأعظمية (التي صارت كلية الشريعة)، ونُقل حيناً إلى كركوك في أقصى الشمال وحيناً إلى البصرة في أقصى الجنوب. وبقي في العراق إلى سنة ١٩٣٩، لم ينقطع عنه غير سنة ١٩٣٧ التي أمضاها مدرّساً في بيروت.

وقد تركتْ تلك الفترة في نفسه ذكريات لم ينسَها، وأحب بغداد حباً كبيراً يتجلى في كثير من سطور وفقرات هذا الكتاب. ففي المقدمة التي كتبها للطبعة الجديدة منه في سنة ١٩٩٠ يقول: «ما كنت أقدّر أني أقدم بغداد، وأني أعيش فيها سنين من عمري، وأني أتّخذ فيها أصدقاء وأحبّة أعدّهم من أدنى أحبابي إلى قلبي.. أين مني تلك الأيام؟ الأيام التي مضت ولن تعود. أحنّ إليها ولا أدري لماذا الحنين إليها؟ أحنّ إليها لأني فقدتها؛ والشريف الرضي يقول:

وقائلة في الركب: ما أنت مُشْتَهٍ ... غداةَ جزَعْنا الرملَ، قلتُ: أعودُ

وهيهات، فلا الماضي يرجع، ولا الشباب يعود». ويقول في

مقالة «ثورة تموز في العراق»: «أقمت في العراق سنوات أربعاً، ورجعت منه وقد حملت منه ألف ذكرى، وخلفت فيه خمسة آلاف تلميذ، ولبثت على الوفاء للعراق، أحنّ إليه أبداً وأذكر أبداً أيامي فيه. . وكنت أعدّ نفسي من أهل العراق؛ لأني أكلت خبز العراق، ورأيت خير العراق، واتخذته بلداً بعد بلدي؛ فما كان ـ بعد دمشق والحرمين ـ مدينة أحبّ إليّ من بغداد. وما أضمرت لبغداد غير الحب، ولا أكننت لأهلها إلاّ الوفاء».
وفي مقالة «من ذكريات بغداد» التي كتبها جدي وهو في الشام سنة ١٩٤٦ يقول: «ما الذي هاج في نفسي ـ هذه العشية ـ ذكر بغداد، ونشر أمام عيني ما انطوى من ذكرياتها وما مات من أيامها؟ ما الذي رجعني إلى تلك الليالي؛ لياليَّ في بغداد سنة ١٩٣٦، حتى كأني ـ لفرط ما تشوقت إليها وأوغلت في ذكراها ـ أعيش فيها؟ أي سحر فيك يا بغداد جذب قلبي إليك؛ فلم أنْسَك إذ أنا في بلدي الحبيب، ولم أزل أحنّ إليك وأشتاقك؟ بغداد. . يا بغداد، عليك مني سلام الود والحب والوفاء».

لقد وضع جدي في أول هذا الكتاب مقالة كتبها حين مرّ ببغداد سنة ١٩٥٤ في رحلته إلى المشرق من أجل فلسطين، وهي الرحلة التي سيأتي خبرها في الكتاب القادم. عنوان هذه المقالة «فِلْم بغداد»، وقد قال في هامشها إنه وضعها بين يدي هذا الكتاب لتكون كالمدخل إليه، وما هي من الذكريات ولا من المشاهدات كما هو الشأن في بقية مقالات الكتاب، بل هي عرض سريع لتاريخ بغداد من أقدم أيامها إلى اليوم، فكأنه فِلْم[1] سينمائي تنتقل فيه المشَاهد بين الأزمان ويُلمّ فيه المُشاهد بما صار وما كان.

أما سائر مقالات الكتاب فإنها ـ كما يدل اسمه ـ «ذكريات ومشاهدات». فمنها ما كتبه جدي وهو في العراق، مثل مقالات «من

---

(١) قال جدي في حاشيةٍ على بعض كتبه: الفلم، من غير ياء، كلمة أجنبية عرّبها المجمع العلمي في دمشق من قديم.

دمشق إلى بغداد» و«سُرّ مَن رأى» و«على إيوان كسرى» و«ثورة دجلة» و«صورة» و«بغداد في يوم غازي» و«يوم الفتوة في بغداد» و«صورة سوداء من بغداد»، ومنها ما كتبه في ذكرياته عن بغداد بعد فراقها بسنين، مثل «من ذكريات بغداد» و«يوم من أيام بغداد» و«ثورة تموز في العراق».

وفي الكتاب مقالتان عن ذكريات علي الطنطاوي في دير الزور (التي نُقل إليها معلماً في عام ١٩٤٠ ولم يكمل فيها السنة المدرسية بسبب أحداث الشغب التي وقعت في أول العطلة، وقد مرّ خبر هذا كله مختصراً في القسم الأول من هذا الكتاب). وقد كتب في أول المقالة الأولى منهما: «إذا صحّ أن يكون في المدن سفراء، فمدينة الدير سفارة عراقية في الأرض الشامية، وما دخلت الدير إلا ذكرتني العراق، بمظهرها ومخبرها ولهجة أهلها؛ لذلك أثبت هذا المقال في كتاب «بغداد».

وفي أواخر الكتاب مقالة كتبها وهو يغادر العراق بعد أربع سنوات من وصوله إليه أول مرة، هي «وداع بغداد»، قال فيها: «ودّعتها والسيارة تشتد بي إلى المحطة تسلك إليها شوارع ذات بهجة وجمال، وعانيت الوداع فأيقنت أني مفارق بغداد عما قليل، وجعلت أذكر كم ودعت من أحباب، وكم فارقت من منازل، وكم قطعت قلبي قطعاً نثرتها في أرض الله الواسعة التي لا تحفظ ذكرى ولا ترثي لبائس!». وفيها: «الوداع يا بغداد.. يا بلد المنصور والرشيد، يا منزل القواد والخلفاء، والمحدثين والفقهاء، والزهاد والأتقياء، والمغنين والشعراء.. الوداع يا دار السلام، ويا موئل العربية. يا بلداً أحببته قبل أن أراه، وأحببته بعدما رأيته. لقد عشت فيك زماناً مرّ كحلم النائم، صحوت منه على صوت الداعي يؤذن بالفراق، فلم أجد منه في يدي إلا لذع الكرى. وهل تخلف الأحلام إلا الأسى والآلام؟ ولكني ـ على ذلك ـ راضٍ؛ فالوداع يا بغداد، واسلمي على الزمان!».

* * *

صور من الشرق
في أندونيسيا

نُشر هذا الكتاب في سنة ١٩٦٠، وفيه مقالات وأحاديث نشرها علي الطنطاوي أو أذاعها بعد عودته من رحلته في سنة ١٩٥٤ أو السنوات القليلة اللاحقة، وهو يقع في مئتي صفحة من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤).

يكاد المرء يصنف هذا الكتاب في زمرة الكتب التاريخية حين يقرأ فيه تلك المقالات التي تسرد تاريخ أندونيسيا وتاريخ الإسلام فيها، ثم يعدل به إلى الذكريات وهو يقرأ ما فيه من أخبار مرّ بها المؤلف وما وقع له - في رحلته تلك - من قصص وأحداث.

ولنبدأ قصة الرحلة من أولها: في سنة ١٩٥٤ عُقد في القدس مؤتمر إسلامي كبير لنصرة فلسطين، وقد تمخض هذا المؤتمر عن لجان عدة كان من أبرزها لجنةٌ للدّعاية لفلسطين، وكان علي الطنطاوي من أعضاء هذه اللجنة التي قُدِّر لها - بعد ذلك - أن تقتصر عليه وعلى الشيخ أمجد الزهاوي، ثم قدر لهما أن يطوفا في الأرض في سبيل الدعاية لفلسطين وجمع التبرعات لها.

قال من مقدمة الطبعة الأولى للكتاب: «من ست سنين انعقد في القدس مؤتمر إسلامي للنظر في نكبة فلسطين وطريق العمل على نصرتها، وفدت عليه الوفود من بلاد الإسلام كلها، من مراكش إلى أندونيسيا، وكان «برلماناً شعبياً» مثّل كلَّ بلد فيه زعماؤه وكبار أهله. ورأى أعضاء المؤتمر القدس وما حلّ بها، وشاهدوا آثار المأساة وبقاياها؛ فتقاسموا على نذر

أنفسهم للعمل لها. وانتخب المؤتمر لجاناً ثلاثاً، كانت إحداها لجنة للدعاية والإنعاش الروحي، شرّفني برياستها وكلفها أن تطوف العالم الإسلامي، تعرِّف بفلسطين وتدعو الناس لإمدادها بالمال. وكنا خمسة: اثنين من العراق؛ الشيخ الزهاوي والأستاذ الصواف، واثنين من الجزائر، وأنا. فاعتذر الجزائريان، ورجع الصواف مضطراً من كراتشي، فبقيت مع أستاذنا الجليل، بركة العصر، الشيخ أمجد الزهاوي. وكان علينا أن نجمع المال، ولكنا خفنا أن يقول الناس إننا سرقنا أو أخذنا لأنفسنا؛ فآثرنا السلامة، وجعلنا عملنا أن نشرح للناس قضية فلسطين ونصف لهم مأساتها ونعرض عليهم أدوارها، وأن نؤلف اللجان في كل بلد لتجمع هي المال لها وتبعثه مع أمناء منها».

وأمضى الوفد (أي أمجد الزهاوي وعلي الطنطاوي لا غير) في هذه الرحلة ثمانية أشهر طوّفا فيها في ربع المعمور من الأرض: الباكستان والهند وماليزيا وأندونيسيا. ثم عاد جدي ليحدث بما رآه ووعاه في أحاديثه الإذاعية الأسبوعية من دمشق، وكان أولها حديث بعنوان «أعود»، وفيه: «يا أصدقائي المستمعين، ها أنذا أعود إليكم بعدما غبت عنكم ثمانية أشهر جزعت فيها ربع محيط الأرض، وبلغت فيها أبعد المشرق، ووصلت فيها إلى ما لم يصل إليه ابن بطوطة. رأيت السند والهند، وجزت بورما وسيام، وزرت الملايا وسنغافورة، ورميت أبعد المرامي، آخر أندونيسيا، حيث لم يبقَ بين وبين أوستراليا إلا مرحلة واحدة بالطيارة».

ثم مضى في أحاديثه (التي أودع هذا الكتاب بعضاً منها) يبين أخبار رحلة الشرق، فمن أراد أن يقرأ خبر الرحلة متصلاً متسلسلاً فليقرأ هذه المقالات بترتيبها الذي أَقترِحُه هنا لا بترتيبها في الكتاب: «رفيق في الرحلة»، هي مدخل للرحلة يتحدث جدي فيه عن رفيقه فيها الذي صحبه في كل مراحلها، الشيخ أمجد الزهاوي. «من عمان إلى بغداد»، وفي هذا الفصل سردٌ لبداية الرحلة والانتقال من عمان إلى بغداد بطريق البر. «من

بغداد إلى جاكرتا»، وفي هذا المقال وصفٌ للرحلة الجوية بين المدينتين (على أن ما تجدر الإشارة إليه أن الرحلة لم تكن انتقالاً مباشراً من بغداد إلى أندونيسيا، بل إن «اللجنة» قد أمضت في الباكستان شهرين، ثم في سنغافورة والملايا زمناً لم أستطع تحديده من قراءتي للكتاب). ثم اقرؤوا «في الملايـا»، وهو مقال كتبـه جدي في عام ١٩٥٩ وتحدث فيـه عـن ذكرياته في سنغافورة والملايا، وقد نشره بمناسبة الإعلان عن استقلال سـنغافورة. ثم «في جاكرتـا»، وهو فصل طويل واسـع فيه وصفٌ وافٍ وتفصيل كبيـر للحياة في أندونيسـيا. ثم «بـوغور»، وهي ضاحيـة من ضواحي جاكرتا فيها أكبر متحف نباتي في العالم. ثم «يوم في الجنة»، وفي هذه المقالة وصف للرحلة عبر جزيرة جاوة، من مغربها إلى مشرقها، في الطريق إلى سورابايا. ثم «في جوكجا»، وهي بلدة في وسط جزيرة جـاوة لها أخبار تسـتحق أن تتوقفوا لقراءتها. ثم اقفزوا إلى المقالات الأربع التالية في آخر الكتاب: «سورابايا» و«هذا النداء» و«كاراسيك» و«نزهة في أطراف سورابايا»، وكلها ذكريات عن أيامه في سورابايا، وهي ـ عملياً ـ آخر ما نجده في هذا الكتاب من ذكريات الرحلة. أما الفصل الأخير في الكتاب: «نثار من المشاهدات والأخبار» فلا يكاد يكون في سياق الرحلة وإن يكن حافلاً بفيض من المعلومات المفيدة عن عادات القوم، في أفراحهم وأحزانهم، وما عندهم من طعام وشراب، وما يصدر في تلك البلاد من صحف ومجلات، وسوى ذلك من الفوائد والفرائد.

بقي أن أشير إلى أن في الكتاب فصولاً فيها تلخيص لتاريخ أندونيسيا وتاريخ الإسلام فيها، وهي فصول عظيمة القيمة جليلة المنفعة لا أحب أن يضيع عليكم ما فيها من فوائد، وهذه الفصـول هي: «إسلام أندونيسـيا» و«الحركـة الإسلامية في أندونيسـيا» و«استقلال أندونيسيا». ويلحق بها فصل طويل أكثره ليس من إنشاء جدي، بل هو قد اقتطفه من مصادر كثيرة وترك عبارته ـ كما قال ـ على ما كانت عليه، وعنوانه: «لمحات من تاريخ الدين والوطنية».

* * *

الذكريات

١ ـ ٨

تتألف مجموعة الذكريات من ثمانيـة أجزاء من القَطْع المعتاد (١٧×٢٤) فيها نحو ألفين وخمسـمئة صفحـة، وتضم مئتين وأربعاً وأربعين حلقة مما نُشر.

كان تدوين الذكريات ونشرها حلماً حمله علي الطنطاوي في قلبه وأملاً ظل يراوده سنين طوالاً، حتى قال ـ في بعض سطور مقدمته لكتاب «تعريف عام» ـ إنه يرضى أن يتنازل عن كل ما كتبه ويوفق الله إلى إكمال ذلك الكتاب (تعريف عام) وكتاب «ذكريات نصف قرن»[١].

وتأخر الأمر، وأجّل جدي الشروع فيه ثم ما زال يؤجّل (ألم يكن التأجيل من صفاته؟!)، ومرت السنون بإثر السنين، حتى كان يوم من أيام سنة ١٩٨١، جاءه فيه زهير الأيوبي يسعى إلى إقناعه بنشر ذكرياته في مجلة «المسلمون» التي كان قد ابتدأ صدورها في ذلك الحين: «ثم أحالتني الأيام على التقاعد، فودعت قلمي كما يودَّع المحتضر، وغسلته من آثار المداد كما يُغسل من مات، ثم لفقته بمثل الكفن وجعلت له من

---

(١) وقد كان هذا هو الاسم الذي أطلقه على الكتاب قبل أن يولد الكتاب، فلما صدر كان قد جاوز نصف القرن بكثير، فعدل إلى الاسم الذي صدر به، وهو: «ذكريات علي الطنطاوي».

أعماق الخزانة قبراً كالذي يُدفن فيه الأموات. حتى جاءني من سنة واحدة أخ عزيز، هو في السن صغير مثل ولدي، ولكنه في الفضل كبير، فما زال بي يفتلني في الذروة والغارب (كما كان يقول الأولون)، يحاصرني باللفظ الحلو، والحجة المقنعة، والإلحاح المقبول؛ يريدني على أن أعود إلى الميت فأنفض عنه التراب وأمزق من حوله الكفن، وأنا أحاول أن أتخلص وأن أتملص، حتى عجزت فوافقت على أن أكتب عنده ذكرياتي. فيا زهير: أشكرك؛ فلولاك ما كتبت».

لقد استجاب جدي لهذا الإلحاح وهو لا يتصور ما هو مقدم عليه، وأكاد أجزم أنه لو كان يعلم لأحجم وما أقدم، فقد هونوا عليه الأمر ـ بداية ـ حتى راح يتحدث وهم يكتبون ما يقول، وظهرت في مجلة «المسلمون» حلقتان كذلك، ولكنه ما لبث أن استثيرت همته ودبت فيه الحماسة فتحول إلى كتابة الحلقات بنفسه، ومضى فيها تجرّ كل حلقة حلقة بعدها حتى قاربت ربع ألف حلقة. وأحسب أنه لو لم يوافق ـ في ذلك اليوم ـ على الشروع بهذا المشروع لما رأينا هذه الذكريات بين أيدينا أبداً.

لقد كانت كتابتها أملاً من آمال جدي العظام كما قلت، وها هو ذا يحدثنا عنها في مقدمتها في أول الجزء الأول: «هذه ذكرياتي؛ حملتها طول حياتي، وكنت أعدّها أغلى مقتنياتي، لأجد فيها ـ يوماً ـ نفسي وأسترجع أمسي، كما يحمل قربةَ الماء سالكُ المفازة لتردّ عنه الموت عطشاً. ولكن طال الطريق وانثقبت القربة، فكلما خطوت خطوة قطرتْ منها قطرة، حتى إذا قارب ماؤها النفاد، وثقل عليّ الحمل، وكلّ مني الساعد، جاء مَن يرتق خرقها، ويحمل عني ثقلها، ويحفظ لي ما بقي فيها من مائها؛ وكان اسمه زهير الأيوبي. جاءني يطلب مني أن أدوّن ذكرياتي.. وكان نشرُ هذه الذكريات إحدى أمانيّ الكبار في الحياة، ولطالما عزمت عليها ثم شُغلت عنها، وأعلنت عنها لأربط نفسي بها فلا أهرب منها ثم لم أكتبها، بل أنا لم

أشرع بها؛ لأني لا أكتب إلا للمطبعة. لذلك لم أجد عندي شيئاً مكتوباً أرجع - عند تدوين هذه الذكريات - إليه وأعتمد عليه، وما استودعتُ الذاكرةَ ضعفت الذاكرةُ عن حفظه وعجزت عن تذكّره. لذلك أجّلت وما طلت، وحاولت الهرب من غير إبداء السبب، وهو يحاصرني ويسدّ المهارب عليّ، ويمسك - بأدبه ولطفه وحسن مدخله - لساني عن التصريح بالرفض. ثم اتفقنا على أن أحدّث بها واحداً من إخواننا الأدباء وهو يكتبها بقلمه. واخترنا الأخ العالم الأديب إبراهيم سرسيق، فسمع مني ونقل عني، وكتب حلقتين أحسن فيهما وأجمل، ولكن لا يحك جسمَك مثلُ ظفرك؛ فكان من فضله عليّ أن أعاد بعض نشاطي إليّ فبدأت أكتب».

ولكنه بدأ - كما قال - على غير خطة أو نظام: «بدأت كتابة الذكريات وليس في ذهني خطة أسير عليها ولا طريقة أسلكها، وأصدق القارئ أني شرعت فيها شبه المكرَه عليها؛ أكتب الحلقة ولا أعرف ما يأتي بعدها، فجاءت غريبة عن أساليب المذكرات وطرائق المؤرخين». ولذلك قال في أول حلقة كتبها بيده للمجلة: «هذه ذكريات وليست مذكرات؛ فالمذكرات تكون متسلسلة مرتبة، تمدها وثائق معدَّة أو أوراق مكتوبة، وذاكرة غضة قوية. وأنا رجل قد أدركه الكِبَر؛ فكلّت الذاكرة وتسرّب إلى مكامنها النسيان». ثم يقول: «الجندي حين يمشي في مهمة عسكرية يمضي إلى غايته قدماً؛ لا يعرج على شيء ولا يلتفت إليه، ولكن السائح يسير متمهلاً؛ ينظر يمنة ويسرة، فإن رأى منظراً عجيباً وقف عليه، وإن أبصر شيئاً غريباً صوّره، وإن مرّ بأثر قديم سأل عن تاريخه؛ فيكون له من سيره متعة، ويكون له منه منفعة. وأنا لا أحب - في هذه الذكريات - أن أمشي مشية الجندي، بل أسير مسيرة السائح».

هذا ما كان في ذهنه حين بدأ يكتب الذكريات، فهلمّوا بنا - الآن - «نقرأ» أجزاءها المنشورة الثمانية لنرى ماذا وضع فيها.

* * *

الجزء الأول بدأ ـ كما يمكن لنا أن نتوقع ـ من طفولة جدي المبكرة؛ من أيام دراسته الابتدائية، بل من «الكُتّاب» قبلها، وفيها ذكر للحرب العالمية الأولى وتذكّر لنمط الحياة في الشام في تلك الأيام. ونحن نمضي فيه مع علي الطنطاوي الصغير وهو ينتقل من مدرسة إلى مدرسة، ومن عهد إلى عهد؛ من العهد التركي إلى العربي إلى الاستعمار الفرنسي، ونقرأ عن أيامه في «مكتب عنبر» (وهو المدرسة الثانوية) وعن شيوخه وأساتذته. ثم نجد والده قد توفي فاضطرب أمره، فانصرف إلى التجارة أمداً يسيراً ثم عاد إلى الدراسة، ونجده قد سافر ـ بعد النجاح في الثانوية ـ إلى مصر للدراسة بدار العلوم، ولكنه يقطع السنة قبل تمامها ويعود إلى الشام. وهو يحدّثنا ـ في مواطن متفرقة من هذا الجزء ـ عن أصل أسرته وعن أبيه وجده وعن أمه وأسرة أمه. وفي أواخر هذا الجزء نقرأ عن الثورة على الفرنسيين ونقرأ من شعر هذه الثورة الكثير.

* * *

في الجزء الثاني تبدأ صفحة جديدة من الذكريات حين ينشر علي الطنطاوي الشاب، ابن السابعة عشرة، أول مقالة له في الصحف، وتبدأ ـ بذلك ـ مرحلة العمل في الصحافة، حيث نقرأ عن الصحف التي عمل بها والصحافيين الذين عمل معهم. ثم نقرأ عن صدور أول مجموعة من مؤلفاته وهي رسائل الإصلاح ورسائل سيف الإسلام، وتمرّ بنا صور من المقاومة الوطنية وأعمال اللجنة العليا لطلاب سوريا. ولا نلبث أن ننتقل مع علي الطنطاوي من هذا الجو إلى التعليم الذي بدأ به مبكراً، وننتقل معه من مدرسة إلى أخرى، من سلميّة إلى سقبا، ونقرأ بعضاً من تفاصيل سيرته في التعليم. وفي هذا الجزء يحدثنا جدي بتفصيل عن بعض أساتذته ومشايخه. أما أكثر الفصول تأثيراً فهي التي يحدثنا فيها عن أمه وأبيه، وخاصة حين يمضي بنا مثيراً عواطفنا إلى غايتها في الحلقة السابعة والأربعين: «يوم ماتت أمي».

* * *

وفي أول الجزء الثالث ننتقل مرة أخرى، من حيث انتهينا في الجزء الثاني في سقبا بالغوطة، إلى رنكوس؛ المحطة الجديدة في مسيرة علي الطنطاوي في التعليم، ثم مرة أخرى إلى زاكية، المحطة التالية! بعد ذلك نقرأ عن ظهور مجلة الرسالة، ثم لا نلبث أن نمضي مع علي الطنطاوي الرحالة في واحدة من أعجب الرحلات؛ الرحلة إلى الحجاز لاكتشاف طريق الحج البري. ولكن سرد أحداث هذه الرحلة ينقطع مرة لرواية قصة الخط الحديدي الحجازي، ثم ينقطع مرة أخرى لرواية ذكريات عن رمضان، وينقطع ثالثة لرواية ذكريات عن القوة والرياضة. وفي هذا الجزء نقرأ عن محدّث الشام، الشيخ بدر الدين الحسني، ثم ننهيه وقد تركنا الشام إلى بغداد. لقد كانت النقلات السابقة في التعليم من قرية إلى قرية، وها هي الآن نقلة من بلد إلى بلد؛ من الشام إلى العراق!.

* * *

الجزء الرابع جزء حافل بالأحداث والتغيرات الحاسمة. نبدؤه بدروس الأدب في بغداد، ثم نمضي مع ذكريات طنطاوية عن بغداد والعراق؛ عن رمضان في بغداد، ثم عن إيوان كسرى وسُرّ من رأى، وننتقل مع علي الطنطاوي من بغداد إلى البصرة، ثم نترك العراق كله إلى بيروت لنمضي هناك سنة ١٩٣٧ في كليتها الشرعية، ولكنا لا نلبث أن نعود إلى العراق لنعيش حيناً في المدرسة الغربية في بغداد قبل أن ننتقل إلى كركوك. وأخيراً يعود علي الطنطاوي إلى سورية فيُعيَّن مدرّساً في دير الزور ولا يمكث فيها غير أمد يسير. ونكمل بقية الجزء في قراءة أخبار المرحلة الجديدة من حياة «القاضي» علي الطنطاوي في دوما ثم في محكمة دمشق. ولايخلو هذا الجزء ـ كالعادة ـ من استطرادات، كرواية ذكريات عن الحرب العالمية الثانية، وتخصيص حلقتين للأطباء؛ واحدة للهجوم عليهم والثانية للدفاع عنهم، وأخيراً حديث عن الحياة الأدبية قبل نصف

قرن، وهو حديث ينقطع معنا هنا لنكمله في الجزء التالي.

* * *

كما توقعنا: نبدأ هذا الجزء، الخامس، باستكمال الحديث عن الحياة الأدبية قبل خمسين عاماً، وهو حديث يجرّنا إلى ذكريات أدبية متنوعة. ثم ننتقل ـ فجأة ـ إلى ذكريات جزائرية، ثم إلى ذكريات فلسطينية. وهذه الذكريات تنقلنا إلى قضية فلسطين، فنجدنا وقد انتقلنا مع علي الطنطاوي إلى القدس لنحضر «مؤتمر القدس الإسلامي»، ثم لا نلبث أن نجد أنفسنا في وسط الرحلة دون أن ندري؛ ننتقل من القدس إلى بغداد، ونمر بالموصل وإربل، ثم نتوقف طويلاً في كراتشي. وهذه الوقفة الطويلة تنقلنا ـ بلا تكلف ـ إلى الاستماع لعلي الطنطاوي وهو يروي لنا «قصة باكستان» الممتعة ثم وهو يحدثنا الحديث الشيق عن دهلي، الفردوس الإسلامي المفقود. ولا أدري كيف ننتقل من الهند والسند لنجد أننا قد صرنا في دمشق في يوم الجلاء، وإذا بسلسلة جديدة من الموضوعات يولّد بعضها بعضاً: الجلاء يذكّر بالاستعمار وأساليبه، وهذا يذكّر بإفساد التعليم والأخلاق على الطريقة الفرنسية، وهذه تذكّر بمعركة دروس الديانة في مدارس الشام، وهذه جرّت إلى الحديث عن الدعوة إلى الاشتراكية والعبث بالمناهج أيام الوحدة؛ فما انتهينا من هذا الجزء إلا ونحن نَلِجُ عهد الوحدة ونقرأ عن عبد الناصر كيف استقبلته دمشق ووزيرِه كمال الدين حسين كيف التقى به علماء الشام!.

* * *

ونبدأ الجزء السادس من وسط المعمعة؛ من الخطبة التي هزت دمشق، أو التي هزّ بها علي الطنطاوي دمشق بعبارة أصح، ويستطرد الحديث ـ في عدد من الحلقات اللاحقة ـ إلى قصة الوحدة وقصة

الانفصال، ووقفة عند أسباب الانفصال، ثم قصة ذبح علي الطنطاوي التي روجتها الصحف الناصرية بتفصيلاتها الكاملة. بعد ذلك نعود إلى سلك الذكريات ونستأنف رحلة الشرق التي قطعناها في الجزء الماضي، فننطلق إلى أندونيسيا ونتنقّل بين جزائرها ومدائنها، ونتوقف ـ مرة أخرى ـ لنسمع حديثاً تاريخياً عن قصة أندونيسيا؛ مع الإسلام ومع اليابانيين والهولنديين والبريطانيين. ولكن لايسلم هذا الجزء ـ أيضاً ـ من استطرادات، فنعيش حلقتين مع صلاة الاستسقاء المشهورة أيام الوحدة في الشام، ونقرأ عن واحدة من معارك علي الطنطاوي الأدبية، وفي آخر الجزء ذكريات عن التعليم والمدارس، ثم حلقتان عن القضاة والمحامين. أما الحلقة الأشد تأثيراً فالتي بدأها جدي برثاء شكري فيصل ثم انتقل منه إلى ابنته الشهيدة، بنان، وإذا به يأتي بواحدة من أعظم مقطوعات الرثاء في تاريخ الأدب الحديث.

* * *

وصلنا إلى الجزء السابع، وهو يبدأ بمزيد من ذكريات وصور القضاء ثم يتنقّل بسرعة بين موضوعات متباينة؛ من أسبوع التسلح بالشام، إلى أخبار عن العلم والعلماء في دمشق قبل نصف قرن، ثم إلى فتنة التيجانية في الشام، ثم إلى الكلية الشرعية في دمشق. بعد ذلك نقرأ حلقة علمية في تصنيف العلوم وأخرى في الفقه والأحوال الشخصية، وهذا الموضوع يقودنا إلى مشروع قانون الأحوال الشخصية الذي اشتغل به علي الطنطاوي ونسافر معه إلى مصر في رحلته إليها من أجله. وبعد وقفات صغيرة وبعض الاستطرادات نبدأ في قراءة تفصيلات الرحلة التي قام بها جدي إلى أوروبا في سنة ١٩٧٠، فنسافر معه إلى ألمانيا وبلجيكا وهولندا، ونقرأ عن الدعوة الإسلامية في هذه البلاد، ونعيش معه أياماً بتفاصيلها في آخن وبروكسل وفي سواهما من مدن ومناطق تلك البلدان الأوروبية.

* * *

الجزء الثامن هو آخر الأجزاء، نعود فيه ـ بعد انقطاع طويل واستطرادات نقلتنا إلى أقاصي الأرض ـ إلى القضاء، وندخل مع علي الطنطاوي إلى محكمة النقض بعدما صحبناه وهو يودع المحكمة الشرعية. وبعد أن تعترضنا أشتات من الذكريات نعود إلى السياق، وننتقل مع علي الطنطاوي ـ هذه المرة ـ في آخر وأهمّ انتقال له، إلى المملكة العربية السعودية. فنُمضي معه ـ أولاً ـ سنة في الرياض، ثم ننتقل معه إلى مكة المكرمة. ونعرج قليلاً على موضوعات متفرقة؛ كتفسير بعض الآيات، وحديث عن تعليم البنات، ووقفة مع أبي الحسن الندوي ومذكراته.

ثم ينتهي بنا المطاف مع علي الطنطاوي إلى آخر الكتاب حيث يقول: «لما شرعت أكتب هذه الذكريات ما كنتُ أقدّر أن تبلغ أربعاً وعشرين حلقة، فوفّق الله حتى صارت مئتين وأربعين، وما استنفدت كل ما عندي، ولا أفرغت كل ما في ذهني، فقد جاءت على نمط عجيب، ما سرت فيها على الطريق المعروف، ولا اتبعت فيها الأسلوب المألوف، فلم تجئ مرتّبة مع السنين، ولا مقسمة تقسيم الأحداث والوقائع، وما كانت تستقيم دائماً على الجادة، بل تذهب يميناً وتذهب شمالاً؛ أبدأ الحديث فلا أتمّه، وأشرع في آخر فلا أستكمله، وما أدري كيف احتمل القراء هذا كله مني؟! وكنت أفارقكم كل خميس على أن ألقاكم في الخميس الذي بعده، ولكن فراق اليوم إلى غير لقاء».

وهكذا ينتهي الجزء الثامن من مجموعة «الذكريات»، وبه تنتهي الذكريات، ولكن. . .

تعالوا معي إلى «كلمة الختام» في الصفحة التالية.

* * *

في الختام

كتب جدي ـ رحمه الله ـ في نهاية الجزء الأخير من الذكريات كلمة قال فيها: «هذه هي نهاية الجزء الثامن من الذكريات ولكنها ليست نهاية الذكريات، ولا أحسب الذكريات تنتهي حتى تنتهي الحياة؛ لأن الإنسان كلما عاش يوماً رأى فيه مشهداً، أو سمع فيه خبراً، أو مرّ بتجربة. وتمحص الأيام هذه المرئيات وهذه المسموعات فيأكل كثيراً منها النسيانُ، وما بقي منها استحال إلى ذكريات». وفي آخر الكلمة تاريخ كتابتها: «مكة المكرمة يوم ذكرى مولدي؛ ٢٣ جمادى الأولى، الذي يوافق هذه السنة غرة سنة ١٩٨٩».

واليوم يمكنني أن أعلن انتهاء «الذكريات» وأنا أخطّ كلمات النهاية لهذا الكتاب. فبعد عشر سنوات وشهور على تدوين الكلمات القليلة السابقة لم يبقَ مجالٌ لمزيد من الذكريات؛ بعد إذ قد مضى صاحبها إلى حيث يمضي كل حي في هذه الدنيا الزائلة، وبعدما استأثر به الله فنقله من دار الفناء إلى دار البقاء.

يا جدي، السلام عليك وعليك رحمة الله، وإنّا إن شاء الله بك لاحقون. أنت لنا فَرَطٌ ونحن لك تَبَعٌ؛ أسأل الله لك ولنا العافية.

أما أنتم ـ يا قرائي ـ فلكم الشكر إذ قد صحبتموني في هذا الكتاب، ولا أملك أن أفارقكم قبل أن أسألكم ألّا تنسوا جدي، الشيخ علي الطنطاوي، من الدعاء؛ فإن يكن هذا الكتاب سبباً في دعوة له بالرحمة والمغفرة من قارئ؛ فحسبي بها سبباً لتأليف هذا الكتاب.

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *